فاضل صالح السامرائي

نداء الروح

فاضل صالح السامرائي

نداءُ الرّوح

الإهـــداء

إلى الفتية الذين يحملون الحق ويعيشون له ...
إلى الفتية الذين سينتصف بهم الحق يوماً...
وأظن ان ذلك الوقت مهما بعد فهو قريب..
ومهما امتد فهو آت...
إلى طلاب الحقيقة أنى كانوا.. أقدم نداء الروح؟

المؤلف

﴿ بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

المقدمة

للاستاذ الفاضل الدكتور عبد الكريم زيدان

لقد غشِيت البشر في عصرنا الحاضر موجة هائلة من المادية القاسية، سدت عليهم منافذ الجانب الروحي من كيانهم، ولفتهم ظلمة صاروا معها لايستبينون طريق الحق ولا معالم الصواب. ولا يزال ركب الانسانية موغلاً في سيره في هذا الدرب المظلم، مستسلماً لهذه الموجة المادية الطاغية..

ونحن لانبالغ اذا قلنا ان أعظم مايمتاز به عصرنا الحاضر هو تضخم الجانب المادي في الحياة البشرية مع ضمور هائل في الجانب الروحي من هذه الحياة.... ولا يمكن للانسان أن يحيا حياة طيبة ويسعد في عيشه إلا اذا أعطى كل جانب (الروحي والمادي) حقه من الرعاية والاهتمام. وبهذا وحده فقط يكون الانسان إنساناً سوياً قادراً على تحقيق الغرض الذي خُلق من أجله. منسجماً مع هذا الكون الفسيح الذي هو جزء منه ولكنه جزء ممتاز جداً هو أشرف ما فيه (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر). ونحن اذا تلمسنا أسباب هذه الحالة التي أتينا على ذكرها آنفاً، لالفيناها ترجع الى علة أصلية هي (شرود الناس عن ربهم ونسيانهم إياه وجهلهم به). ولهذا فان من أنفع وأجل وأفضل ما يقوم به المسلم اليوم ما يبذل من جهد في تذكير الناس بربهم وتعريفهم به وردهم اليه عن طريق الكتابة والمحاضرة والمناقشة والدرس والتأليف والمجادلة بالتي هي أحسن... الخ.

ونحن نعترف أن هذا المطلب ليس بالمطلب اليسير - لأسباب مختلفة ليس هنا محل بسطها وتفصيلها - ولكنه على كل حال ليس بالمستحيل، وكل

صعب يهون، وكل عسير يسهل مع العمل الدائم والجهد المتواصل، والنية الصادقة التي لاتتلفت الى المغانم والى ما في أيدي الناس. . . ومما يعين في تحقيق هذا المطلب ان في الكيان الانساني فراغاً لايسده إلا «الايمان بالله تعالى» (فطرة الله التي فطر الناس عليها) هذا وان المتأمل يرى أن لاشيء في الوجود أظهر من وجود الله تعالى، ولا شيء اكثر أدلة تدل عليه من الله تعالى. . ولاينقض قولنا هذا وجود المنكرين وثرثرة الجاحدين لأن الانسان قد ينكر الواضحات لانتكاس بصيرته أو عماها أو للحجاب المضروب عليها (انها لاتعمىٰ الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور). . . والأدلة على وجود الله تعالى بلغت حداً من الكثرة يصعب حصرها في عد أو احصاء، فما من شيء في العالم إلا وهو ناطق «أن لا إله إلا الله» ولكن الانسان ظلوم جهول كفور «قتل الانسان ما أكفره» يمر على الآيات وتصدمه الدلالات البينات فيغمض عينيه لئلا يراها أويمر بها وهو عنها معرض وبغيرها مشغول «وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون». . .

ولكثرة الادلة على وجود الله تعالى كان كفر الانسان وجحوده وتمرده على ربه بالغاً أقصىٰ حدود القباحة والشناعة والفظاعة مما جعل جزاءه الخلود في النار كما نطق بهذا القرآن الكريم في اكثر من آية. . . والدليل لايشترط فيه أن يكون على شكل خاص أو من نوع خاص أو على طريقة الفلاسفة وأهل الكلام وإنما كل مايشترط في الدليل أن يكون واضحاً صحيحاً موصلاً الى المدلول. . . وأحسن الأدلة ما جاء ذكرها في القرآن الكريم وهي في جملتها تقوم على النظر في مخلوقات الله تعالى والتفكر فيها والاستدلال بها على خالقها: الرب جل جلاله وحكمته وقدرته ورحمته وصفات كماله لاسيما في زماننا الحاضر حيث وقف الانسان على دقائق خلقة المخلوقات وعجائب تركيبها وصنعها. . . فاذا ما آمن الانسان بربه جره هذا الايمان الى الايمان بالنبوات وباليوم الآخر، ونبوة محمد ﷺ واتباع ما جاء به من ربه

وتفصيل هذا هو أن من يؤمن بالله تعالى وحكمته ورحمته لايمكنه إلا أن يؤمن بان الله تعالى لابد أن يرسل رسلاً للناس يوضحون لهم السبيل

ويرشدونهم الى الطريق القويم. أي يبينون لهم كيفية السير في هذه الحياة والنظام الذي يتبعونه، لأن الرب جل جلاله الذي لايغفل عن أصغر مخلوق في الكون بل يلهمه ما يصلح له وما به كماله لايمكن ان يغفل عن الانسان ويتركه هملاً. دون بيان لما يصلح به ودون كشف عن معالم الحق والصواب، ولايقال ان العقل يكفي لهدايته فالعقل وحده لايستقل بهذه المهمة وإن كان ضرورياً لتفهم ما يلقيه الله تعالى اليه على ألسنة رسله. والقول خلاف ما ذهبنا اليه تنقيص في حق الله تعالى وعدم تقديره حق قدره قال تعالى «وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا مانزّل الله على بشر من شيء» فالله تعالى يرد على منكري النبوات ويجعل انكارهم هذا تنقيصاً له سبحانه وتعالى، وعدم تقديره حق قدره وجهلاً به وبصفات كماله وما تستلزم هذه الصفات من ارسال رسل للناس.

فاذا آمن الانسان بربه وبانبيائه ورسله آمن باليوم الآخر حتماً. لأن ارسال الرسل يستلزم حتماً أمراً ونهياً وبالتالي طاعة وعصياناً من البشر وبالتالي لابد من حساب على هذه الطاعة وهذا العصيان. ولما كان الحساب والجزاء لايأتيان إلا بعد الفراغ من أعمال الانسان، وأعمال الانسان لاتتم إلا عند موت الانسان فلابد إذاً من حياة اخرى للانسان ليلقي حسابه وينال جزاءه وهذا هو اليوم الآخر. فاذا تبين هذا - وهو بيّن بحمد الله تعالى - فانكار اليوم الآخر تنقيص بقدر الله تعالى وتنقيص بصفاته الكاملة يتعالى عنه الله تعالى «أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وانكم الينا لاترجعون؟ فتعالى الله الملك الحق» فالله تعالى يرد ظن من يظن أن البشر يتركون هملاً بلا أمر ولا نهي أي بلا ارسال رسل اليهم» كما يرد ظن من يظن أن البشر لايرجعون الى الله تعالى.

فاذا آمن الانسان بربه وباليوم الآخر وبالنبوات فلابد أن يؤمن برسالة محمد ﷺ لأنه ما من دليل يقام على اثبات نبوة نبي أو رسالة رسول إلا وهذا الدليل اكبر وأوضح منه موجود في اثبات رسالة محمد ﷺ، ولولا التعصب الذميم وإلف العادات وما يتوارثه الأبناء عن الآباء: لآمن الجميع بنبوة ورسالة محمد ﷺ لاسيما ومعجزته «القرآن الكريم» باقية موجودة بين أيدي الناس بخلاف

معجزات غيره من الرسل.

فاذا آمن الانسان بربه وباليوم الآخر وبالنبوات وبرسالة محمد ﷺ اقتضاه هذا الايمان ان يتبع هدىٰ الرسول ﷺ وما جاء به من ربه. إذ لامعنى للايمان بالرسول بدون طاعته، واتباع ما جاء به. فاذا فعل الانسان هذا يكون عند ذاك قد اعطىٰ لجانبه الروحي حقه من الرعاية والاهتمام، ولجانبه المادي حقه من الرعاية والاهتمام. فيكون انساناً سوياً قادراً على تحقيق الغاية التي خلق من اجلها منسجماً مع الكون، سعيداً في عيشه.

وبعد، فهذه مقدمة قصيرة أقدم بها كتاب «نداء الروح» للاخ فاضل صالح السامرائي الذي كنت ألمح فيه منذ سنين من علائم الايمان ما جعله قريباً الى قلبي. ولا ازكي على الله احدا.

ان هذا الكتاب يضم ابحاثاً جيدة، ونافعة ان شاء الله تعالى في الايمان بالله تعالى، واليوم الآخر، واثبات وجود عالم روحي غير عالمنا المادي، وان الانسان مادة وروح. كل هذا وغيره كتبه المؤلف باسلوب واضح جذاب مع نقول من كتب مختلفة تؤيد ماذهب اليه. وحسب المؤلف أن يثيبه الله تعالى أجراً على نيته وجهده في إخراج هذا الكتاب سواء رضي الناس عنه أم سخطوا فما ينبغي للمسلم أن يعمل لمرضاة الناس أو سخطهم.

واني أدعو الله تعالي أن يجعل هذا الكتاب سبباً الى هداية مرتاب وزيادة في يقين مؤمن، وإزالة لشبهة، ورد لمبطل أو باطل، وكشف لتلبيس، وتثبيت لمسلم، وأن ينفع به كاتبه وقارئه وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. والحمد لله رب العالمين.

٢٧ ربيع الاول ١٣٧٨ هـ

١٠ تشرين الاول ١٩٥٨ م

عبد الكريم زيدان

مقدمة المؤلف

لم يكن يدور بخلدي أن هذه الصفحات التي بين يديك ستكون يوماً ما كتاباً، بل لم أكن آمل أن أسجل هذه الصفحات. حتي جاءني خطاب من أخ عزيز يستحثني أن اكتب ثماني محاضرات في الايمان بالله واليوم الآخر. وقد حاولت أن أتخلص بشتي الأعذار فأبى إلا أن يكون ذاك، فكنت عند رغبته. ولما انتهيت من إعداد ما طلب إلي في حوالي أربعين صفحة من القطع الكبير خطر ببالي أن أزيدها وعزمت على ذلك فكان هذا الذي بين يديك.

وكلنا يعلم سعة هذا الموضوع، فمن العسير أن نلم بأطرافه إن لم يكن من المستحيل ونحن لن نطرق إلا القليل منه وذلك لأشياء تقع في حوزتنا وأخرى خارجة عن ارادتنا.

ومعذرة الى القارىء إذا أحس من قراءته لبعض الموضوعات كأنه يقرأ محاضرة أعدت للالقاء. إذ إنني لم أجد في نفسي حافزاً قوياً يدفعني لتغييرها.

وقد حاولت أن أجعل الاسلوب مبسطاً قدر الامكان يفهمه كل أحد.

وقد ذكرت فيه «لوامع الادلة العقلية» وأشهر البراهين الكلامية. ولعله يرى القارىء أني حينما بحثت في أدلة المتكلمين قد تحررت بعضاً ما من دقة تعبيرهم واختصرت جهدي. وآثرت ذلك ليفهمه كل قارىء، خاصة وقد ألقي في روع الناس ان ادلة المتكلمين لايفهمها إلا من كان له إلمام بعلمهم ومصطلحاتهم، فأصبح الخوض فيها أمراً عسيراً. وأنا أعلم انني قد لا أسلم من نقد الناقدين ولكن الذي يثلج صدري أنه بسطت ما استطعت تبسيطه ليلم به كل أحد مبتغياً به وجه الله وحده.

المبحث الأول

المدخل إلى البحث

ان البحث في الايمان بالله واليوم الآخر بحث قديم، طرقته الانسانية منذ القديم، ولاتزال تتشوف اليه وتتحدث فيه وتتلذذ بكل ما يضفي على هذا البحث نوراً ساطعاً ودليلاً مقنعاً وستظل كذلك، لهفة إلى الحقيقة متعطشة للوصول اليها، الى أن يرث الله الارض ومن عليها على الرغم من تكاثر البراهين وتوافر الأدلة.

وإن الانسان إذ يفعل ذلك فانما يفعله استجابة لما غرس في نفسه، ونداء لما جبل عليه. وإن ذلك لدليل قوي على ان الانسان «لايقوم وحده» في هذا الوجود، وان الانسانية في هذا البحث الطويل كناشد الضالة يستخبر الأثر ويتسمع الخبر.

وما كان هذا الكتاب ولا آلاف غيره ليوقف هذا التشوف ويجعلها مسألة نهائية ـ وإن كانت كذلك ـ البحث فيها مفروغ منه، ولو قدم كل ما يمكن تقديمه من الحجج. بل ستبقي أبد الأبدين الحقيقة التي تقبل انتاج الدهر كله في هذا المضمار، وتسع كل ماقيل ويقال من الأدلة والبراهين ومع ذلك سيبقى البحث فيها جديداً وكأنه غير مطروق.

فيالها من حقيقة كبرى خالدة!

الإيمــــان

من الحق أن نبين أننا لسنا نعتمد في إيماننا على دليل مخصوص أو برهان محدود، بحيث إن نقض أو انتقض، انتقض إيماننا تبعاً له. . الواقع ان إيماننا أبعد من ذلك وأعمق، وهو يعتمد أول ما يعتمد على تيسير الله بما يقذفه في قلب المرء من نور واطمئنان إذا ما سلك طريق الحق وحرص على بلوغ الحقيقة (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا). أما الأدلة والبراهين فهي لا تنفع إلا الراغب في معرفة الحق.

ونعتمد ـ ثانياً ـ على التفكير في مخلوقات الله. التفكير العميق الطويل وذلك أدعىٰ لأن يأتي بالايمان، وأدعى لأن يرسخه في العقول والنفوس. وهذا هو الاسلوب الذي سلكه القرآن الكريم في إثبات وجود الله تعالى وما يستحق من إفراد بالعبادة.

ومن طلب الايمان بغير هذين فقد ركب مركباً صعباً، ومن اعتقد أن الايمان لا يأتي إلا عن طريق الأدلة العقلية والبراهين المنطقية فقد ضيق موسعاً، وما هو بعائد منها إلا بالنزر اليسير. وعلى هذا فقد يكون إيمان العامة أقوى من إيمان المتكلمين ومصنفي الادلة أنفسهم، فهم ـ كما يقول الامام الغزالي ـ ايمانهم كخيط معلق في مهب الريح يثبت مرة ويضعف اخرى.

فاعتمادنا أولاً على رحمة الله سبحانه.

ولا ينبغي أن ننسى ما للعبادات من بالغ الاثر في تركيز الايمان في الافئدة، لذلك نرى الله سبحانه يعقب في محكم آياته حينما يتكلم على العبادات بقوله: لعلكم تذكرون، لعلكم تتقون، وما الى ذلك.

حاجة النفس الى الإيمان

ما أحوج المرء إلى إيمان بالله يورثه الطمأنينة في حياته، والسكينة في نفسه، والقوة في قلبه وشخصيته، ويجد فيه السند الأصيل لذاته. لذلك نرى بعض العلماء الأكابر من الغربيين من يفضل الايمان ولو بالحجر على أن يبقى الانسان ملحداً. ويعزو كثيراً من تذبذب الشخصية الى تذبذب القلب في الانكار والجحود. فقد قال الدكتور «هنري لنك» ـ وهو احد رجال علم النفس التجريبي المشهورين بقي ملحداً سنين طويلة حتى عاد اليه الايمان بالله ـ في كتابه «الطريق الى السعادة ص ١٧» «وقد استخلصنا من هذه الاختبارات نتيجة هامة، ولو أنها لم تنشر في التقرير النهائي وهذه النتيجة هي ان كل من يعتنق ديناً أو يتردد على محل العبادة تكون شخصيته أقوى وأفضل ممن لادين له أو لا يزاول أية عبادة».

وقال أيضاً في ص ٦٠ «إذ إنه مهما بلغت المعتقدات من السخافة، فهي أفضل من عدم الاعتقاد في شيء على الاطلاق».

فالملحد لايجد إلا فراغاً هائلاً في نفسه. وهوة سحيقة في قلبه.. تكاد الحيرة تمزق فؤاده، وتطير بلبه، فهو يود أولاً لو يتأكد من وجود حياة اخرى مثلا، بل يتمنى وجودها على الأقل، لأن الانسان يرغب في البقاء ويحب الخلود. وهو ثانياً ليس عنده دليل في نفسه، أو ليس بمتأكد من وجود تلك الحياة، فهو يخشى إن تزهّد في معيشته، وامتنع عن شهواته ألا يكون هناك يوم آخر فيكون قد أضاع حياته ـ كما يظن ـ سدى، ويكون قد خسر أثمن شيء لديه. كما يخشى إن انحدر في مهاوي الرذيلة، وغطس في حمأة الشهوة أن يكون هناك يوم آخر فيحاسب على اعماله، وتكون نتيجته العقاب الابدي.

وهو لايملك برهاناً على عدم ذلك، بل ان موحيات الحياة قد تضطره الى الايمان احياناً أو التفكير على الاقل في شأنها، وبذلك يكون قد وصل الى درجة من الحيرة قاتلة. لذا تراه يبعد هذا التفكير عن نفسه إبعاداً، ويتغافل عنه ان وجد صيحته في نفسه، ويتعامى عنه ان رأى موحياً بذلك. ونفسه دائمة الالحاح عليه تعرض ما يثير الريبة عندها وهو دائم التغافل والتعامي عن ذلك، كالنعامة إن أحست ان الصياد أدركها تعامت عنه ووضعت رأسها في التراب. فهو يضع رأسه وقلبه ونفسه في الحياة وشهواتها متغافلا عن صيحات نفسه ظاناً انه نجاوما هو بناج. واقرأ بعد ذلك قوله سبحانه «ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق..»

حجتنا أظهر

حججنا ـ نحن الربانيين ـ أظهر من حجج المنكرين، بل انه ليس عندهم حجج في الانكار سوى التخمينات والحدس. وجل ماعندهم أن يمسكوا براهين وأدلة المنطقيين ويناقشوها مناقشة هزيلة.

ومن أولى قواعد المنطق أن من حفظ برهاناً حجة على من لم يحفظ. بل ان طرفاً من براهيننا مستقاة منهم أنفسهم، فهم حجتنا عليهم، وهم لايستطيعون إلا أن ينقضوا نظرتهم بأعمالهم وأنفسهم. فهل رأيت بربك اكبر برهاناً، وأعظم حجة من ان الماديين يقرّونه بأعمالهم ويُجرونه بأفعالهم؟

أليست لهم عواطف؟ ألا تثور؟ أو لا تتحرك؟!

هل هذه العواطف مادة؟!

إنها لاتحد بحدود الزمان والمكان..

ثم هم هؤلاء الماديون، وحملة الافكار المادية، ألا يدعون أنهم مبرأون من الغرض؟ أليسوا يدعون النزاهة؟ ألا يزعمون أنهم أبعد من أن يكونوا عبيد الحكومات والأموال؟!

ثم هم أنفسهم، ألا يصمون الجماعات الاخرى بوصمة معيبة بل معيبة جداً كما يقولون، يصمونهم بأنهم عبيد الأموال التي تزودهم بها الحكومات؟!.

إنها اكبر طعنة يوجهونها إلى الجماعات الباقية، وهي في نفس الوقت اكبر طعنة يوجهونها إلى صميم فكرتهم المادية. كان عليهم إخلاصاً لمبادئهم المادية أن يكونوا هم عبيد الاموال، لأنه هو الدافع الوحيد كما يزعمون.

كان عليهم تمشياً مع نظرتهم أن يفضلوا اكثرها نفعاً لهم، واكثرها نفعاً اكثرها مالاً.

إنهم حين يبرئون انفسهم يخونون دعوتهم ويطعنونها في الصميم.

وحين يسجنون ويقضي احدهم حياته في السجن وقد لايحصل على شيء من المادة، بل قد يضحي بما عنده من منصب ومال مفضلاً السجن، يكون قد نعى مبادىء فكرته ومشى بها إلى حتفها.

إنهم ينكرون غير المادة، فلا وجود لغيرها مطلقاً. ولكن إن سألتهم ما الجاذبية؟ وما الكهربائية؟ وما هي قوة المغناطيس، فماذا عساهم يجيبون؟! بل ماذا سيجيبون، إن كانت هذه الذرة وهي أصل العناصر تتحول إلى طاقة وتأتي بالأعاجيب؟

إنها حين تحطم سجنها المادي تكون أقوى أثراً واكبر خطراً. وهذا شأن كل من يحطم سجنه المادي، ضربه الله مثلاً من الذرة الصغيرة الى المصلح العظيم.

أما حججنا فتقتضيها أفعال الانسان وقواعد المنطق ومبادىء العقل السليم وفطرة الانسان نفسه. وناهيك بحجج إذا ضاق المنكر بنفسه وأصابه الضر والجزع، فانه يخرج صوت فطرته رغم انفه باحثاً عن الله تعالى، باحثاً عن تلك القوة التي تطلب فطرته منها العون.

فما أظهره برهاناً يلجأ اليه المنكر ذاته!

وسائل الماديين وضعفها

يعتمد الماديون في الانكار والايمان على حواسهم، وما تصل إليه ادواتهم وأجهزة معاملهم في المختبر، على ما في طبيعة الحواس من نقص وعجز لاينفع معه المختبر وأدواته، ناهيك عن أخطاء الحواس فيما تصل إليه. فأدوات المختبر من شأنها أن تكبّر وتوضح أو تقرّب ما يمكن أن تحسه الحاسة بطبيعتها كأنه صغير الحجم مثلاً دقيق الصنعة، وليس من شأنها أن تري العين ماليس من طبيعة العين أن تراه. فكل ما كان مخلوقاً بحيث إن طبيعة العين وتركيبها وعدستها لايمكن أن تراه فعدسات المجهر وأدوات المختبر لايمكن أن تريه للعين. فالخلية مثلاً يسهل على المختبر أن يكبرها كثيراً، ويوضحها جلياً، ويري حركاتها وسكناتها ولكنه ليس من الممكن أن يري الحياة المسيطرة على الخلية، والتي تؤثر فيها التأثير كله. وكل عدسات المختبرات وأدواتها لايمكن أن تظهرها لأنه ليس من طبيعة العين وتركيبها أن تراها.

إن المقربات وعدسات التلسكوبات وآلات واجهزة الرصد، يمكن ان ترينا كثيراً من النجوم الغابرة والتي لايصل نورها الى العين، ولكن هذه الآلات والاجهزة عاجزة عن أن ترينا الأشعة فوق البنفسجية وأمواج الأثير وبعض الأمواج الضوئية الاخرى التي تملأ الوجود بل وهذه كلها عاجزة عن أن ترينا

الكهرباء أو ترينا المغناطيسية، وعاجزة أن ترينا الجاذبية التي تسيطر على الاجرام. وما يصدق على حاسة البصر يصدق على حاسة السمع. فمكبرات الصوت يمكن أن تزيد في درجة تكبير الصوت حتى أن غير المسموع منه لخفوته أو لبعده تسمعنا إياه ولكن هذه وغيرها من الأجهزة لايمكن أن تسمعنا ذبذبات الصوت التي لاتستجيب لها الحاسة بطبيعتها. وان هناك في الكون كما يقول العلماء الباحثون أصواتاً غير مسموعة تملأ الوجود لايمكن ان نسمعها لان درجة تذبذبها لايمكن ان تستجيب لها الحاسة.

فانظر إلى عبث هؤلاء حينما يريدون ان يقحموا في المختبرات ما ليس من طبيعته أن يدخل تحت العدسة أو بين الآلة.

وإن من هؤلاء الماديين طائفة صاحبة فلسفة خاصة، تذهب أبعد مدى من ذلك، تنكر الأخلاق والروح والرب! لأنها لاتدخل في المعمل.

فهي تريد ـ كما قال بعضهم ـ أن تدخل الصدق في المعمل وتقيس حجمه وشكله وطعمه وذوبانه في الماء وتبلوره وقابليته للاشتعال مثلاً! ولما كان هذا ليس من الممكن طبعاً فلتنكر الصدق ولتبعده من حسابها ولتنكر معه جميع الأخلاق.

ومن تخطي هؤلاء لحدودهم خرجت نظريات عدة حاولت أن تفسر سلوك الأنسان وعواطفه تفسيراً معملياً، إنهم انكروا الروح لأنها لم تخضع لحد الآن لمختبراتهم وما أهون ذلك عندهم، ولكنهم ماذا يفعلون في العواطف والانفعالات واستجابات الغرائز كالحزن والخوف والغضب والفرح وما إليها؟

إنها موجودة وليس بوسعهم أن ينكروها، إلا أنهم كيف يستطيعون تفسيرها تفسيراً لا أقول ترتاح اليه نفوسهم (فهم ينكرون النفس) بل ترتاح إليه أجهزة معاملهم؟.

يقول العقلاء من خلق الله: إنا نسمع خبراً محزناً يثير نفوسنا وتجيش له عواطفنا ويستدر مدامعنا فنبكي. ويقولون هم: ماذا؟

يقولون «إننا نبكي أولاً ومن البكاء تنشأ عاطفة الحزن، لسنا نحزن فنبكي ولكنا نبكي فنحزن» ولست أدري أيبكون أيضاً لتنشأ عاطفة الفرح، فالانسان

يبكي أحياناً من الفرح فماذا يقولون؟

البكاء الذي أنشأ الحزن أنشأ الفرح كذلك؟ إنها حركة جسدية واحدة فلم كان الاختلاف؟ وعلام نبكي فنحزن لأمر ما ولا نفرح كما يزعمون؟!

إنها العاطفة ياهؤلاء تجعلنا نضحك في الفرح ونبكي له كذلك، وتجعلنا نبكي من الحزن ونقهقه له ساخطين.

«ويقولون أيضاً إنني رأيت الاسد فجريت فنشأ الخوف من ذلك، لا إنني خفت فجريت»[1] ولعلهم لايدرون أن من الخوف ما يوقف صاحبه فلا يتحرك.

هذه هي تفاسيرهم للعواطف والانفعالات كما تدل عليها كتاباتهم وشروحهم إنها تنشأ من حركات جسدية خالصة.

الحواس

قلنا ان الماديين لايؤمنون إلا بما تصل اليه حواسهم، وينكرون كل مالا يقع تحت سلطان الحواس، وبذلك ينكرون أحكام العقل إن اقتضت وجود موجودات لاتصل اليها الحواس وهذا خطأ محض؛ فالعقل قد يستدل على وجود الموجودات بتأثيرها وخواصها، وذلك كما استدل على وجود الكهرباء والمغناطيس وغيرهما.

ثم متى رأى الانسان جميع المواد؟ إنه أقر بوجود الهواء قبل أن يراه، «واعترف العلماء الفلكيون بوجود كوكب رفيق الشعرى قبل أن يراه «الفن كلارك» ودون أن يروه هم أنفسهم، وكان دليلهم على وجوده اليقيني هو إنجذاب كوكب الشعرى نحوه والجذب من الخواص الميكانيكية للمادة فاستنتجوا أن هناك كوكباً خفياً يجذبه» وهذه هي أحكام العقل الصحيحة.

ثم هم هؤلاء الماديون ـ كما يقول احد العلماء ـ «هل رأوا المادة؟ ومتى رأوها؟ هل رأوها بعيونهم ولمسوها بأيديهم؟ إنهم ما رأوها ولن يروها، وما

---

(١) انظر الانسان بين المادية والاسلام ٥٦

لمسوها ولن يمسوها لأن الأحساس سواء كان بالرؤية أو باللمس لايتعلق بنفس المادة بل بأعراضها. فالرؤية تتعلق باللون دون الملوّن الذي هو الجسم، واللمس يتعلق بالحرارة والبرودة والخشونة والنعومة دون الجسم فمن إحساس هذه الأوصاف والأعراض يدرك العقل وجود الموصوفات» أي ان الأنسان يعرف المادة بخواصها، فبالرؤية لايتمكن أن يرى نوع المادة. فلو عُرضت عليك قطعتان من الشب ومن حامض الليمون المتبلور فأن الرؤية لاتسعفك وحدها بأن تتعرف على هاتين المادتين على ما فيهمامن اختلاف كبير في التركيب، وإنها لاتزودك إلا بأنهما قطعتان بيضاوان متشابهتان، كما إنك لو لمستهما لما استطعت أن تميز بينهما حتى ولا بين قطعة صغيرة من رخام متبلورة. فاللمس لايسعفك إذن إلا بأن تعرف خشونة هذا ونعومة ذاك وحرارته أو برودته.

وما لنا نذهب بعيداً في تقرير الحقائق حتى كأننا في امور فلسفية غامضة؟ الآن وفي هذا العصر وبعد أن رفعوا الحصار عن الذرة وعرفوها وأدركوا طرفاً من كنهها، ماذا وجدوا فيها وعلى ماتحتوي في داخلها؟ إن نتيجة هذا التحليل - كما يقول المختصون - انتهت إلى انه ليس للذرة تركيب مادي تتقوم به، وإنما هناك مجالات كهربائية وشحنات سالبة وموجبة ليس غير، ولم يعثروا فيها على شيء مادي مطلقاً. فالذرة أصل العناصر، وهي نفسها خالية من التركيب المادي. إذن، فليس هناك شيء اسمه مادة وإنما كل ما هنالك شحنات ومجالات كهربائية موضوعة ومنظمة بشكل خاص. وهاك مايقوله الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه (الدين) ص ٨٢:

«. . . ذلك أنه بعد أن وقف التحليل دهراً طويلاً عند الذرة atom على أنها هي الحد الأدنى الذي لايقبل الانقسام ولا الفناء، والذي يحتفظ بكتلته وخصائصه تحت تأثير كل القوى الطبيعة، وفي أثناء جميع التفاعلات الكيميائية. أصبحت اليوم هذه الذرة نفسها عالماً معقداً، مركباً من نواة جامدة وغلاف يدور حولها كما تدور السيارات حول الشمس، وتبين ان هذا الغلاف الذي هو جزء من تركيبها ما هو إلا شحنة كهربائية سالبة. electron مجردة عن كل حامل مادي، وانه يمكن فصله عنها بقوة إشعاعية أو بتسخين هائل. بل

تلك النواة نفسها، التي كانت تعد الى عهد قريب متماثلة الاجزاء أعني ذات قوة ايجـابيـة فحسب proton قد ظهـرت الآن مركبـة في دورهـا من نوعين من الكهـربـاء: موجب وسـالب، وثبت انـه من الممكن تحطيمها وفصل أجزائها، وإن القوة الاشعاعية الهائلة التي تستنبط من هذا التحطيم يمكن استخدامها في إصلاح الكون وتعميره، أو إفساده وتدميره.

هكذا تخلع الطبيعة ثوبها المستعار، وتنكشف المادة عن أصلها الاصيل، فاذا هي «طاقة» أي قوة مجردة، يلزم البحث عن مصدرها خارج ذلك الهيكل المادي المحطم، وذلك الصنم الساقط المهدم. وهكذا يقترب عالم المادة رويداً رويداً من عالم المجردات، ويكاد يتصل عالم الشهادة بعالم الغيب من جهة حده الأدنى، كما اتصل به من جهة حده الأعلى، وهو غيب يؤمن به العلم وان لم يره، لأنه يحس أثره، ويكاد يلمس خطره أجل لقد أصبح العلم يؤمن اليوم بأن في الوجود قوى لاينالها الحس المجرد، ولا الحس المجهز بأقوى المجاهر، المزود بأدق المقاييس والموازين، وبالجملة أصبح يؤمن بأن التجربة الحسية المباشرة ليست هي المعيار الوحيد الموجود، وهكذا وضع بيده اللبنة الاولى في القاعدة التي تقوم عليها الأديان.»

فلتهنأ النظريات المادية إذن بهذه الاكتشافات، إن مختبرها التي اعتمدت عليه وأولته الثقة كذبها وخانها وحطم نظريتها.

ثم انظر ما قاله ج. آرثر فندلاي في كتابه (على حافة العالم الأثيري) الذي ترجم الى اكثر من عشرين لغة ص ٢٧ «أن من طبيعة الانسان الدأب وراء معرفة أسرار الكون، ولذا تابع العلمي بحوثه فوصل شيئاً فشيئاً إلى ان الحقيقة القصوى لاتزال أشد إستعصاء عليه من ذي قبل، وإن هذا العلم (١) الفيزيقي الذي نظنه صلباً جامداً ليس كذلك، وهذا مثل من التصورات الوهمية الكثيرة التي تخطر يوماً ببالنا عن الحياة... ولقد استطاع الفيزيقيون اليوم أن يحطموا المـادة، ونـراهم يعلنـون أنهـا تتألف من شحنـات كهـربـائية متعددة، ومن ثم

---

(١) لعله العالم.

اختفت صلابتها.

«ومن ثم كانت طبيعة المادة وتكوينها مسألة استنتاجية فقط إذن فمم يتكون الكون المادي؟ ألواقع إننا لاندري، ولكن هناك شيئاً واحداً بدأ الفكر العلمي يدركه ألا وهو أن الكون الحقيقي ليس هو الكون الفيزيقي..»[1] ويقول في ص ٣٨:

«إنَّ المادة التي تبدو لنا صلبة ليست في الواقع صلبة أبداً، وما نراه حين ننظر إلى منضدةٍ أو كرسي مثلاً إنما هو اهتزازات عدد ما من الالكترونات وهي تدور بسرعة هائلة حول مركز يسمى النواة، وتتألف المادة من ذرات، وهذه الذرات تتألف بدورها من ألكترونات وبروتونات، وتختلف المواد باختلاف عدد الألكترونات التي فيها أما الوزن فيختلف باختلاف عدد البروتونات».

عجز الحواس وأخطاؤها

قلنا ان الحواس تعجز وتقصر عن ان توصل الينا جميع الموجودات بله ان هناك أخطاء قد تقع فيها الحواس.. فهي لعجزها وقصورها أولاً واحتمال وقوعها في الخطأ ثانياً لا يصح أن نوليها كبير الثقة ونجعلها المصدر الوحيد لإيماننا وإنكارنا.

فالعين مثلاً مع أنها أظهر الحواس، لا ترى الأجسام البعيدة كما لا ترى الأشياء الدقيقة والقريبة. فهي لا تتبين سطور الكتاب وكلماته وحروفه إن قربته إليها تقريبًا شديدًا. إضافةً إلى أنه ليس كل ما لا تراه العين غير موجود فهي لا ترى اللوح الزجاجي الصافي ولا الماء الرائق في القدح مع أنهما موجودان. فانظر إلى جهل الَّذين لا يعتمدون إلا على الرؤية في الإيمان ويريدون أن يروا الله سبحانه.

(١) ص ٢٤

بل الأمر أبعد من ذلك في حاسة البصر، فإنه ليس كل ما تراه العين يقتضي الوجود. فحتى الذي تراه العين لا يقطع بوجوده. فالانسان حينما يطول جلوسه في مكان ما ثم ينهض فإنه يرى خطوطًا زرقاء وملونة، متجمعة على أشكال غريبة، نازلة صاعدة في الفضاء. ويرى السراب يحسبه ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا. ومن المعروف أن من الحمَّى ما إذا آشتد وطؤها يحس المصاب بأنه يرى أشباحًا يزعم أنها تكلمه، وهناك بعض الحالات الهستيرية الشديدة «يرى المريض بها أشباحا تهدده أو تسخر منه أو تزعجه ويسمع أصواتًا لا وجود لها في حس غيره».

كما أن الإنسان إذا حدّق في شيء وأطال نظرته إليه يرى رسومًا مختلفة ودوائر متداخلة تتحرك أمامه. ويذكر علم النفس التربوي طريقة في خداع البصر يسميها (الطريقة الذاتية) وهي: أنك إذا رسمت دائرة سوداء قطرها ١سم مثلاً في حائط، وحدقت النظر فيها طويلاً ثم التفت إلى حائط غيره أو مكان آخر فإنك ترى النقطة نفسها على الحائط الآخر، وهذا من تضليل الحواس.

فليس إذن كل مالا تراه العين غير موجود ولا كل ماتراه العين موجوداً. ثم إن العين قد ترينا الصغير كبيراً والكبير صغيراً، فهي ترينا القمر أكبر من النجم، وترينا البنايات والاشياء البعيدة المتنائية جنب بعضها أو أمام بعضها أو بعدها مباشرة أو إحدى أما كنها، وذلك وهم كله.. وقد ترينا الساكن متحركاً والمتحرك ساكناً. فليس كل ماتراه العين متحركاً يلزم أن يكون كذلك، ولا كل ماتراه العين ساكناً يلزم سكونه. فالعين ترينا الأرض ثابتة والنجوم متحركة، وبذلك استدل الاقدمون بنظرتهم البدائية على حركة الاجرام السماوية. ورب اجسام متحركة تراها العين ساكنة لبطء حركتها الشديد أو لسرعتها الهائلة. فهي لاترى حركة عقرب الساعة وحركة الظل، كما لاترى حركة نمو الشعر ولا حركة نمو الصبي وكلها حركات مستديمة. وكما انها لاتحس الحركة البطيئة فهي لاترى الحركة السريعة، إذ هي لاترى حركة بعض آلات وعجلات المكائن وتحسبها ثابتة لسرعتها الهائلة والتي تبلغ احياناً اكثر من اثني عشر

الف دورة في الدقيقة الواحدة، بل وقد لاترى حركة (دوامات الصبيان) التي يلعبون بها فتدور حول نفسها بسرعة كبيرة، فهل يعول بعد هذا على حاسة البصر فيما تصل إليه؟

أمـا الاذن فهـي أضيق مدى من العين، فلا تسمـع الاصـوات البعيـدة والخافتة. ولاتسمعنا اصواتاً ذات تذبذب لا تستجيب اليه الحاسة بطبيعتها. فالكون كما قرر العلماء مليء بأصوات مختلفة إلا اننا لانسمعها لان الحاسة لاتستجيب إليها طبيعياً.

وكمـا انهـا لاتسمـع الأصـوات الخـافتـة، فهي كذلـك لاتسمع الأصوات الشـديـدة الهـائلة. ففي تفجـر القنـابـل الـذريـة مثـلا يقـول المجـربون إنهم لايسمعـون إلا الصـرخـة الاولى تصم آذانهم ولايسمعـون مايجـري بعدها من تفرقعات عظيمة وانفجارات هائلة مع أن آلات التسجيل تسجل ارقاماً عالية وتعليل هذا واضح يكاد يعرفه كل احد فان اوتار كورتي داخل الأذن معدودة تسمع درجة تذبذبات محدودة علواً وانخفاضاً، شدة وخفوتاً. فكل صوت درجة تذبذبه اكثر أو اقل مما تستطيع الأوتار أن تتأثر به فهو غير مسموع بالنسبة إلينا.

وقد تكون عدة اصوات متقاربة، بعضها مرتفع وبعضها خافت وانت لا تسمع منها إلا الصوت المرتفع، حتى اذا هدأ الصوت المرتفع بدأت تسمع ما كان محجوزاً عن سمعك.

وهي بعد كالعين، فليس كل ما لاتسمعه غير موجود، ولا كل ماتسمعه الأذن موجوداً. فالانسان يسمع احياناً هواتف في نفسه يخيل إليه انها تدعوه، ويسمـع حفيفـاً أو طنينـاً قرب اذنـه وهـو ليس بمـوجـود. وقـد يصـاب بمرض هيستيـري أو حمى شديـدة يخيـل إليـه فيهـا أنـه يسمع أصواتاً تكلمه واشباحاً تناجيه وهو بدوره يبادلها الحديث ويناجيها.

أما حاسة اللمس فهي اضيق مدى من الحاستين الاوليين، وهي لاتكاد تعمل إلا بما يتصل بها اتصالاً مباشراً، مختلفة في ذلك عن البصر والسمع.

واخطاء الحس في اللمس مشهورة يدرسها الطالب في مبادىء الفيزياء ومنها انك إذا وضعت ثلاثة أوانٍ في احدها ماء حار وفي الآخر دافىء وفي الثالث بارد ووضعت يدك في الماء الساخن اولا ثم وضعتها في الدافيء احسسته بارداً، وإذا وضعت يدك في الماء البارد اولاً ثم وضعتها في الدافىء احسسته حاراً. أما إذا انفك الجسم عن هذه الحاسة فهي لاتكاد تعمل شيئاً لضيق مداها.

وأما الذوق فهو اضيق من حاسة اللمس هذه. فهو لا يتذوق إلا ما يلمس، وليس كل مايلمس يستطيع أن يتذوقه. فهناك مواد يقال عنها إنها عديمة الذوق أي لاتعمل فيها الحاسة.

وهذه الحاسة كأخواتها تضلل صاحبها. فلو جئت بمادتين احداهما صادقة الحلاوة والأخرى اقل منها، وطعمت الاولى وتبعتها بالثانية فانك لاتعرف مدى حلاوة الاخيرة. ولو طعمت مادة ملحة وتبعتها بأخرى اقل منها ملوحة لأحسستها عديمة المذاق.

اضافة إلى ان هذه الحاسة شديدة التأثر، ما إن اصاب الانسان حمى إلا واحس بها الماء العذب مراً علقماً.

بل ان هاتين الحاستين (اللمس والذوق)، لا تستطيعان أن تعملا في كثير من المواد لتأثيرها عليهما. فهناك طائفة من الحوامض (كحامض الكبريتيك والنتريك) وبعض المركبات الكيماوية لايستطيع اللمس أو الذوق ان يعمل فيها لتأثيرها المتلف.

افبعد هذا كله لا نؤمن إلا بما تصل اليه الحواس، أم ان ذلك من جهل الجاهلين؟!

العقل

لايقتصر شكنا على الحواس فحسب، بل نشك في كل ماهو بشري. فكما نشك في الحواس وما تزوده الحواس، نشك كذلك في العقل وما يقرره العقل. نشك فيه من نواح عدة، نشك في أنه كامل، ونشك في أنه مبرأ من الهوى، ونشك في أنه قادر على أن يفهم كل شيء.ولايناقض هذا التقرير ردنا السالف على الماديين بل يؤيده ويسنده. فانا كما نعرف للعقل قيمته ولانبخسه حقه وننكره فضله، لاندعه يتخطى حدوده ونغالي في قيمته فنقحمه ميادين هو بعيد عنها ونبدد طاقته في خيالات يتخيلها.

فليس كل ما لايعلم به العقل أولا يعرفه ليس بموجود ـ كما يذهب بعض المغالين. إن حكم العقل صادر فيما تزوده له الحواس، فان زودته بمواد ناقصة جاء حكمه ناقصاً، وإن زودته بمواد مخطوءة جاء حكمه خاطئاً، وما أيسر النقص والخطأ فيما تعده الحواس. أما فيما لاتزوده به الحواس، فالأولى به إن كان يعرف قيمته أن لايبت في شيء من ذلك وان لايبني حكمه على الحدس والتخمين.

إن العقل البشري ناقص. ودليل نقصه أنه يرتاب ويجهل، ويشعر دوماً بالرقي نحو الكمال ويتطلع إليه. وهو بمرور الزمن تزداد تجاربه ومعلوماته فيتبدى له ما كان يجهله، وينقض احكاماً كان يعدها من المسلمات وقد يؤمن بما كان ينكره. وهذا كله دليل العجز والنقص.

والبشرية في دورها الطويل نقضت اموراً حسبتها من المسلمات وآمنت بما كانت تعده خرافة. ولا يزال العلم مستمراً في نقضه وإبرامه، فما كان حقيقة الأمس أصبح اليوم نظرية قديمة، ولعل حقائق اليوم يكون حتفها غداً. فأين الكمال في العقل البشري، ومن يزعم أن العلم وصل الى غايته؟

قال فيثاغورس قديماً: ان الارض متحركة والاجرام السماوية ثابتة، حتى

جاء بطليموس فأنكر ما قاله فيثاغورس وقال إن الأرض هي مركز الكون وهي ثابتة لاتتحرك، وكل الاجرام السماوية تدور حولها. وبقيت هذه حقيقة الحقائق المسلم بها حتى جاء غاليلو فرجع إلى ما قرره فيثاغورس..

وهذه الذرة، قالوا عنها إنها الجوهر الفرد وإنها غير قابلة للتحليل، فجاء العلم الحديث يثبت بطلان هذا الادعاء. فمن يدعي الكمال إذن؟ وهل يدعيه إلا مخرف جاهل؟

الحق انه كما قال «هنري لنك» في كتابه «الطريق إلى السعادة» ص ٥٨ «كذلك البشر، منحوا عقلا، مجالاته وصولاته محدودة بمعرفة مخلوقات الله ومنشآته المختلفة، أي محدودة بالكون الفسيح، لأنه هو مجال المعرفة لايتعداه العقل، لأن معرفته جاءت وتجيء عن طريق هذا الكون فقط. هذا الكون المتسع وضعته قوة عليا، كحد أقصى لمعرفة جميع عقول المخلوقات البشرية، لأن تلك المعرفة في مجموعها لاتتعدى هذا الكون بحال، أي أنه وضع حداً لأقصى معرفة متجمعة. فاذا كان كذلك، فما تقدر مجموعة العقول البشرية إذا اجتمعت في صعيد واحد أن تصل إلى معرفة اكثر مما وضع حداً لها لأنها تستمد تلك المعرفة من صور هذا الحد المختلفة. اي انها لاتقدر - لو اجتمعت - على معرفة حدود واضع هذا الحد أو كيف وضع هذا الحد، لأنها تقتصر على معرفة الحد دون موجده كالآلة التي تقتصر على معرفة القدرة الكهربائية دون معرفة اساس موجدها.

اي أن تلك القوة الموجودة العليا لايمكن قطعاً معرفتها - حتى لو تمثلنا نهاية قصوى للمعرفة البشرية - متجمعة متحدة. وستظل مجهولة في كنهها وفي حدودها، لأنه لا حد لواضع الحدود القصوى.»

هذا من جهة، أما من جهة اخرى فان الاهواء لازمة للعقل الانساني لاتنفك عنه، وقد يكون لها الأثر الاكبر في توجيه الشخص والاستبداد به، وقد تعزل أحكام العقل إلا ما كان يوافقها، وهذا مما يزيده ضعفاً على ضعفه.

رأي في عقيدة التوحيد[1]

يعتقد الكثير ان عقيدة البشر الاولى هي العقيدة الوثنية، على أية صورة كانت. وذلك يعود لجهل الانسان المطبق بكل ما حوله. بينما يعتبر عقيدة التوحيد جد حديثة إذ التوحيد يحتاج إلى عقل مفكر وعلم واسع لذلك لم تخرج هذه العقيدة إلى حيز الوجود إلا بعد أن اخذ البشر يغترف من مناهل العلم والمعرفة، وقطع حقباً من الزمن متطاولة. ومما يؤيد هذا الرأي الكثير من الاكتشافات الأثرية للعصور السالفة والتي عرفنا بها أن فكرة التوحيد كانت مجهولة لديهم.

ويحق لنا أن نبدي رأينا إزاء هذا القول:

فالمؤرخون بأجمعهم قرروا أولاً أن معرفتهم تقصر عن ابداء الرأي الصحيح في تلك العصور، وأنه ينبغي عدم الأخذ بأي حكم في هذا الصدد ولا التعويل على أي رأي مطلقاً. فكل حكم يصدر عن تلك العصور إنما هو حكم مزيف «يقضي به قاض معزول». فزعمهم بأن الديانة الأولى كانت وثنية زعم باطل من اساسه وحجة واهية ليست مقبولة قط لاتفاق المؤرخين على عدم قبول اي شيء بخصوص ذلك المجتمع الاول.

هذا من جهة، ومن جهة اخرى فان البشرية لاتسير على خط مستقيم في طريقها في الحياة، إنما هو ترقٍّ وانتكاس. فبيناهي ماضية في رقيها حتى تصل إلى درجات عالية إذ تبدأ بالتردي حتى تنحط في مهاوي الجهل. فاذا رأينا مجتمعاً من مجتمعات تلك العصور ليس فيه أثارة من رقي ومعرفة، فان ذلك لايدل على انه وجد كذلك منذ البداية، بل لعل الأرجح ان هذا التردي حدث عقب مدنية زاهرة وحضارة وارفة نسبياً. ومن يملك برهاناً على عدم صحة هذا الرأي وهي عصور ما قبل التاريخ التي لايقطع فيها بالقول الفصل؟ ومن يستطيع أن ينكر هذا وسنن الحياة توحي بأن هذا التعليل قد يكون أصدق من غيره؟ ومن يدري فلعل الذي توصلوا إليه من أمر الجهل والتردي كان قد

(١) راجع ما كتبه المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه (الدين)

سبقه من العلم والمعرفة ماسبقه وهذا شأن أغلب الحضارات؟!

ان العصور المظلمة في كل زمان - تقريباً - كانت تقدمتها عهود ضاربة في الرقي والتقدم، هذا وقد دلت الابحاث والتنقيبات الأثرية على أن حضارة تلك المجتمعات القديمة لابأس بها وأن معرفتها عن الحياة غير قليلة، فكم احتاج هؤلاء حتى بنوا حضاراتهم وشيدوها؟ وكم من الاجيال ذهبت وهي تساهم في بناء تلك الحضارة؟ ومن يدري فلعل هذه الحضارة قامت إثر حضارة أخرى كانت في مجتمع آخر ثم تردئ في متاهات الضلال والجهالة. فهل يزعم أحد أو يدعي بأن هذا المجتمع أو ذاك هو أقدم المجتمعات البشرية على الاطلاق، والعلم الصحيح لايؤيده؟ ومن يقضي بأن ديانة هذا المجتمع أو ذاك هي أقدم الديانات على الاطلاق؟!

ثم إن كان قد ادعى أحد الباحثين أو المؤرخين انه استدل بنتيجة بحوثه وتنقيباته أن ذلك المجتمع الأقدم الذي توصل إليه قد عبد الوثن، فهل يقتضي هذا بأنه كان كذلك منذ بدء الخليقة وفي كل المجتمعات على السواء؟!

إن نتيجة التنقيبات أظهرت هذا وأظهرت غيره والمنقبون لم يصلوا إلى نتيجة واحدة، فبينما توصل جماعة منهم إلى دين لمجتمع ما توصل غيرهم إلى دين آخر لمجتمع يعاصره أو يسبقه.

ثم حجة اخرى قد تبدو قوية: يقولون ان البشرية كانت غارقة في الجهالة لاتعرف عن أمر الحياة شيئاً ثم بدأت بالترقي التدريجي وأخذت نظرتها تتسع شيئاً فشيئاً حتى ارتفعت الى افق التوحيد وإلى فكرته السامية.. ونحن بدورنا نعلق ازاء هذا الكلام فنقول: متى كان العلم والدين، والحضارة والعبادة، يسيران جنباً إلى جنب في خط واحد وعلى منهج واحد على طول العصور؟ إنه من الجائز جداً أن يكون في مجتمع ما تقدم علمي وحضارة رائجة ومع ذلك فهو في دور تدهور ديني وانحطاط في العقيدة والعبادة. وخذوا «يونان» مثلا ألم تكن تعبد الوثن وتدين بالحجر في أوج حضارتها وعنفوان قوتها؟

ان هذا القول يقتضي انه كلما كان المجتمع اوفر حضارة كان بدوره أقرب إلى التوحيد، فلم لا ينطبق هذا الاقتضاء على المجتمع الغربي الآن؟

ان خط سير الدين غير مرتبط بخط سير العلم [1] قد يتفقان مرة ويختلفان اخرى. وليس معني ذلك ان مبادىء الدين تخالف اصول العلم، كلا! فهذا شيء وذلك شيء، ولكن المقطوع بصحته لحد الآن ان اي دين من الاديان يكون في اول نشأته اصفى واخلى من التعقيد من اي وقت آخر يمر عليه، وكلما ابتعد عن مصدره كدر صفوه ودخله التعقيد والتخليط.

فاليهودية والمسيحية والاسلام مثلاً وغيرها من الأديان المعروفة كا نت اول نشوئها وبادئ عهدها أقرب إلى التوحيد والصفاء منها الآن بغض النظر عن مستوئ الحضارة.

ان الحضارة في عهد العباسيين وتشعب العلوم والمعارف اكثر بكثير منه في عهد الخلفاء الراشدين، ولكن لم يقتض التقدم العلمي الكثير أن يكون الدين قد ترقى بدوره نحو التوحيد وصفا من كدر كان عليه مراعياً تقدم المجتمع المدني ان الدين في عهد الرسول احسن حالا بكثير منه في اي عصر من العصور الاسلامية الأخرى على مافيها من حضارة زاهرة وعلوم زاخرة.

وثمة سؤال آخر: ترى هل أثر التقدم العلمي والحضارة الزاهية في المجتمع الغربي الآن على عقيدة التثليث وأرجعها إلى التوحيد كما كانت في عهدها الاول؟

فهل يحق لأحد بعد هذا أن يدعي ان الاديان كانت قد نشأت وثنية ثم ترقت بتقدم العلوم؟ وهل يستطيع أن يجزم بأن الدين والحضارة يسيران جنباً إلى جنب؟

أعرفت إذن الى اي مدى تتهافت وتتضاءل حججهم، ويسقط ادعاؤهم بأن دين البشرية الأقدم هو الدين الوثني ثم تقدم بتقدم البشر؟ لم لا نقول أن ما توصلوا إليه من وثنية كان أصله توحيداً ثم ابتعد الناس عن روحه، متمشين -

---

(١) بمفهومه عند الناس - ع ز

في منطقنا - مع خط سير الاديان العامة؟ (١)

تصحيح نظرة

إنك في شؤونك الخاصة واحوالك العارضة تراجع المختصين تأخذ برأيهم وتنزل على حكمهم ولا تطمئن إلى غيرهم. فعندما تمرض أو يمرض احد افراد عائلتك تراجع الطبيب الحاذق تطلب منه الدواء وتلتمس عنده البرء والشفاء.

وان كنت صاحب أرض تريد أن تستدر آبارها وتستثمر خيراتها تراجع المهندس الخبير يقضي حاجتك ويبلغك ارادتك. إنك تراجع المختصين في كل أمر. ولاترضى بالمهندس طبيباً لأنك تعلم أنه ليس من اختصاصه أن يدواي المرضي.

هذه امور يفعلها البشر حسب المنطق الصحيح، وهم منطقيون جداً أن يراجعوا المختصين في كل امر.

أما الأمور غير المنطقية فالتماس الناس حقائق عقائدهم عند غير المختصين. كان عليهم تمشياً مع منطقهم الصحيح في قضاء حاجاتهم وسائر شؤونهم أن يراجعوا المختصين والعارفين. والمختصون بهذا العلم هم الانبياء وحدهم ومن مشى على نهجهم. فلا يفزعنك أيها المؤمن أن ترى المهندس والطبيب، والمحامي والأديب منكرين فانه ليس الأمر من اختصاصهم.

---

(١) وهذا ما يؤيده القرآن الكريم إذ يقرر أن الأصل في الناس التوحيد وان الشرك طاريء عليهم فيقول «كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه». يقول المفسرون انهم كانوا أمة واحدة بالحق والتوحيد فاختلفوا واشركوا . - ع . ز

أقر بعجزي

ان الادلة على وجود الخالق سبحانه كثيرة جداً. وآياته تملأ الآفاق. وهو لشدة ظهوره خفي عن الابصار، وقديماً قيل «إن من شدة الظهور الخفاء».

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد   وينكر الفم طعم الماء من سقم

وأنا أقول واصرح بأنني لاأستطيع أن أحصر الادلة والبراهين لأنها تجمع الكون، ومن يستطيع أن يجمع الكون في قصاصات؟! بل يجمل بي ان اصرح اكثر من هذا فأقول ان البراهين التي سأقدمها لا أُدّعي انها تقنع كل احد. وليس ضعف الادلة معناه ضعف الحقيقة ذاتها، كما ان عدم الاقتناع لايعني عدم صحة الدليل. فالايمان كما اسلفت تيسير من الله تعالى، وأنا مؤمن لا لأني اعرف هذه الادلة، فموحيات الايمان كثيرة وما لم تقتنع به انت قد يقتنع به غيرك. وكل ما أريد ان اقره: انه لايكون ضعف في الحقيقة الالهية إن ضعف الدليل أو لم يقتنع القارىء، وعجز المبرهنين عن اقامة الدليل لايعني عدم صحة هذه الحقيقة إنما يعني عجزه هو فقط.

طائفة من أقوال العلماء والمستدلين

١ ـ الاله هو قدرة عاقلة مدبرة تدبر العالم على خير مايمكن. وهذه السلطة المدبرة هي التي ادخلت النسب والنظام والانسجام في كل جزئيات الكون.

«أفلاطون»

٢ ـ يوجد في الطبيعة نظام وانسجام لاينحرفان ولا يتخلفان، وهذا لايوجد إلا حيث تكون غاية محدودة. وكل رمي إلى غاية يستلزم بالضرورة عقلا، وإذن فللطبيعة علة عاقلة.

«أنا كساغورس»

٣ ـأنا موجود ولدي فكرة واضحة عن الكامل المطلق، فاما ان اكون منشىء نفسي أو قد أنشأني غيري، فلو كنت منشىء نفسي لكان اهون علي أن امنح ذاتي الكمال الذي لدي فكرته، لأن إنشاء الجوهر أصعب وأعقد. من منحه صفات وخصائص أياً كان شأنها. وبما اني ناقص، بدليل أني أرتاب واجهل وأشعر بسيري نحو الكمال شيئاً فشيئاً فأنا عاجز عن منح ذاتي الكمال، وبالأولى اكون عاجزاً عن ايجاد جوهري، وإذن فلم يبق إلا أن استمد وجودي من غيري وهذا الغير ان لم يكن هو الكامل فسيكون موقفة كموقفي إلى أن نصل إلى الكامل الأعلى الذي تتمثل فكرته في عقلي.

«ديكارت»

٤ ـ ان الاسباب حجاب تصرف القدرة. إذ العزة والعظمة تقتضيان الحجاب. . . ولئلا يرى العقل الظاهر مباشرة يد القدرة بالأمور الخسيسة الجزئية»(١).

٥ ـ كيف تكون الثمرة الموضوعة على رأس الشجرة خالقة وصانعة لشجرتها؟

٦ ـ من لايقتدر على خلق كل شيء لايقتدر على خلق شيء من الاشياء.

٧ ـ إن الشيء الموهوم الذي سماه الطبيعيون بالطبيعة لو سلم بوجوده الخارجي فانما هو صنعة لاصانع، أحكام لا حاكم، شريعة لاشارع، مخلوق لاخالق، مفعول لافاعل، قانون لاقدرة ولاقادر، مسطر لامصدر.

٨ ـ الحي قطرة محلوبة من مجموع الكون بنظامات حكيمة معينة وكأنه نقطة جامعة مأخوذة من المجموع بموازين حساسة علمية فلا يمكن أن يخلق ادنى ذي حياة الا من يأخذ في قبضة تصرفه مجموع الكائنات.

٩ ـ كما أن (دار الأدوية) المملوءة بأنواع الأدوية والمعاجين المنتظمة الموزونة بموازين حساسة المقدرة بمقاييس خاصة. كما ان هذه تصيح بلسان حالها: إن لي صاحباً عالماً جامعاً لهذه الأدوية من أماكن متنائية للمحتاجين

---

(١) هذا وما بعده حتى الحادي عشر للسيد النورسي رئيس الجماعة النورية

إليها كذلك كرة الأرض تدل بأتم دلالة واظهرها على أن لها صاحباً حكيماً قديراً قد خلق وأبدع فيها اكثر من ثلثمائة الف من انواع النباتات كل منها دا، لدواء.

١٠ ـ من نظر المصنع الكبير والمعمل الذي ينسج ويسدي انواع الثياب واللباس المزينة يستدل على مهندسه وصاحبه وكذلك من نظر إلى كرة الأرض يراها ماكنة ربانية ومصنعاً الهياً يسدي وينسج انواع المطعومات والمشروبات والملابس ويستدل كذلك ان لها صاحباً حكيماً قديراً.

١١ ـ لو تكونت فرقة من (٢٤) ألف فصيل وكانت أرزاق وأسلحة والبسة وتعليمات وترخيصات كل فصيل منها مخالفة للآخر ويوزع في كل سنة أو أقل من سنة على تلك الفصائل مايحتاجون إليه من تلك الأرزاق والأسلحة والألبسة التي لايشبه بعضها بعضاً. فكما ان من ينظر إلى تلك الفرقة المنتظمة لايشك في وجود مدبرها وفي علمه ومهارته كذلك من نظر هذه النظرة إلى الأرض التي تحتوي على اكثر من اربعمائة وعشرين الفاً من انواع عساكر الحيوان والنبات المخالف كل منها للآخر في غذائه وشكله وحياته ونموه أيقن ولاشك بوجود خالق قدير يدبر أمر تلك الفرقة المركبة من الآلاف من عساكر النبات والحيوان بكمال انتظام.

١٢ ـ أظن انه لايغيب عن فطنة اي لبيب، ان الاعتقاد في وجود الله هو في حد ذاته اعتقاد مقبول بل اقرب إلى التصديق من تلك الاعتقادات المضحكة التي يدين بها الناس الآن ـ إن كان العالم يتطلع إلى كل ماهو معقول مقبول ـ ولعل الايمان بالله وبرسله وكتبه اقل عرضة للمهاترات الجدلية من معظم تلك العقائد شبه العلمية التي يقع الانسان تحت سلطان تأثيرها المخدر فان ايمان المرء بشيء ماليس امراً طبيعياً فحسب. بل هو جد ضروري له. ففي حالة عدم توافر الايمان الصادر عن القلب يصبح المرء عبداً ذليلا لكل عقيدة محملة بوعود الحياة الغنية التي يشتهيها ويرتقبها.

«هنري لنك»

طائفة من الأدلة العقلية

- ١ -

نظرة عامة

نظرة واحدة إلى مظاهر خلق الله تجدها انها ليست خلقت عبثاً ولا على غير نظام معين، فهي موزعة حسب الحاجة إليها. فقد جعل الله الهواء لشدة الحاجة إليه موجوداً في كل مكان منتشراً في كل بقعة لايعسر على احد الحصول عليه نباتاً كان أو حيواناً او إنساناً. فهو موزع في جميع الاماكن لايدفع طالبه أي ثمن، ويستعمله في جميع حالاته، يقظاً ونائماً، متمكناً من نفسه وغافلا وذلك لأنه يتعذر العيش بدونه ولو لوقت قليل. ولذلك جهز الله مخلوقاته الحية بأجهزة تستقبل الهواء دوماً وفي كل حالة وبلا سعي إليه ومن دون اعمال فكر وبطريقة غير شعورية.

ويأتي الماء في الدرجة الثانية بعد الهواء من حيث الحاجة إليه، لذلك تراه أقل من الهواء وجوداً. فهو ليس موجوداً في كل مكان، على انه اكثر شيء في الأرض بعد الهواء وهو يعادل ثلاثة ارباع اليابسة. ويحصل النبات والحيوان والانسان عليه بعد سعي إليه قليل، وقد ينفد الماء لدى شخص ما في مكان ما ويبقى الساعات بدونه، وقد يضطر لدفع الثمن به لشرائه ولكن ثمنه على كل حال زهيد بحيث لا يعدم احد من الكائنات الحية ان يحصل عليه. ويأتي الغذاء في الدرجة الثالثة بعد الهواء والماء لذلك ترى الانسان بل وحتى الحيوان يسعى إليه سعياً، ويعمل له فكره وسائر قواه ويقضي الطويل من عمره في الحصول عليه. وقد لايجد انسان منه ما يسد خلته ويقيم اوده، ويبات على الطوى ليالي وأياماً ليس شأنه مع الهواء والماء.. كما ان الاغذية موزعة في الارض حسب الحاجة إليها، فأكثر الاغذية إحتياجاً إليها اكثرها انتشاراً وتقل تبعاً للحاجة حتى أن أقل ما يُحتاج اليه هو أقلها انتشاراً.. اضافة الى ان الغذاء مذلل حسب قدرة الكائن الحي، فكلما كان الكائن الحي قليل

الحيلة ضعيف التدبير كان غذاؤه ميسراً له مذللا، وكلما كان امعن في التفكير واطول باعاً في المقدرة كان غذاؤه والحصول عليه أعسر وأعقد، ولما كان النبات هو أقل الكائنات الحية حيلة وأضعفها تدبيرا وأقصرها باعاً في المقدرة وأعجزه عن الحركة كان غذاؤه حيث هو.

فحيث كان النبات كان غذاؤه معه يمتص مواده الأولية من مغرسه لاينأى بعيداً ولايفكر سديداً، أما الحيوان والانسان فهو جاهد ما استطاع وبخاصة الانسان يجوب الفيافي والقفار ويضرب في مناكب الأرض طولاً واتساعاً للحصول عليه وذلك لتحرره مما عليه النبات من قيود، ولتملكه وسائل الحيلة والقدرة، ، أهذا التدبير والترتيب نشأ عفواً ومن دون مقدر له عاقل يدرك حاجات الكائنات فيزودها بما تحتاج إليه، ام ان هناك قادراً **عالماً** بحاجات الاحياء فأعطاهم بقدر وأمدهم بمقياس؟

من ادرك بأن الأحياء تحتاج إلى الهواء احتياجاً دائماً لاينقطع فكون منه فيضاً لاينفد في كل بقعة وزمن، ومن زود الأحياء - تبعاً لذلك - بأجهزة تستقبله في كل وقت وأعدها لهذا العمل اعداداً، ومن ادرك بأن حاجة الأحياء إلى الماء والغذاء اقل مما هي إلى الهواء فكان كما ادرك. ومن ذلل الغذاء حسب الكائنات ويسرها على قدرة المخلوقات. من هو ذاك؟ أليس ذلك هو الذي قال عن نفسه «إنا كل شيء خلقناه بقدر»؟!

- ٢ -
الهواء

ثم لو نظرنا نظرة اخرى لوجدنا طريقة «خلط الهواء» أمراً عجباً، إن كل مادة فيه على انفرادها سم قاتل أو محرق مهلك أو غاز خانق، فمن دبر الأمر وخلط هذه المواد بنسب جعلتها (حاجة الوجود) ولو اختلت النسب لهلك كل كائن حي؟ وإضافة إلى هذا فان الخالق لم يخل الهواء من غازات اخرى في اعالي الفضاء تسمى «الغازات النادرة» ووجودها أمر ضروري، إذا لو عدمت لعم

العالم الهلاك. فهي تمتص طرفاً من بعض الأمواج الضوئية كالاشعة تحت الحمراء وفوق البنفسجية إذ لو وصلت هاتان الاشعتان كما تصل إلينا باقي الامواج الضوئية لأبادت العالم واهلكت الكائنات حرقا. كما ان الخالق لو جعل نسبة هذه الغازات عالية بحيث تمتص الاشعة كلها لهلك النبات خاصة والاحياء عامة وذلك لعدم امكان صنع غذائه إلا بها ولتأثيرها الكبير في بناء الاجسام.

وما الطف ما يقوله أ. كريسي موريسون [1] في «الهواء» في كتابه «العلم يدعو للايمان» «. . . وفي هذا الاضطراب الذي لايمكن ادراكه، كان الاوكسجين يتحد مع جميع مواد قشرة الأرض تقريباً. وقد اتحد ايضاً مع كل الهيدروجين الذي اتصل به، وبذا تكون المحيط. ولابد أن مقادير هائلة من الهيدروجين قد فرت من جاذبية الأرض قبل ان تبرد هذه ولولا ذلك لكانت كتلة الماء قد بلغت الآن من الضخامة بحيث كانت تغرق الارض إلى عمق اميال. . .»

«وكان اتحاد العناصر كاملا لدرجة ان ما ترك، وهو الهواء المكون من الاوكسجين والنتروجين على الأخص، لايزيد على جزء من مليون من كتلة الكرة الارضية. . فلماذا لم يمتص كله، او لماذا لم يكن بنسبة اكبر كثيراً من تلك النسبة؟ وفي كلتا الحالتين كان الانسان لا يمكن ان يوجد على ظهر الارض. . .»

«ودون تأكيد لهذه المسائل بعد ذلك، نرى ان مما يدعو إلى الدهشة على

---

(١) هو الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك، ورئيس المعهد الامريكي لمدينة نيويورك، وعضو المجلس التنفيذي لمجلس البحوث القومي بالولايات المتحدة، وزميل في المتحف الامريكي للتاريخ الطبيعي، وعضو مدى الحياة للمعهد الملكي لبريطانيا. ألف هذا الكتاب باسم «الانسان لايقوم وحده» وسماه المترجم «العلم يدعو للايمان».

الاقل أن يكون تنظيم الطبيعة على هذا الشكل بالغاً هذه الدقة الفائقة. لأنه، لو كانت قشـرة الارض اسمـك ممـا هي بمقـدار بضـع اقـدام، لامتص ثاني اوكسيد الكربون والاوكسجين، ولما أمكن وجود حياة النبات...»

«ولو كان الهواء أرفع كثيراً مما هو، فأن بعض الشهب التي تحترق الآن كل يوم بالملايين في الهواء الخارجي، كانت تضرب في جميع الكرة أجزاء الكرة الارضيـة. وهي تسيـر بسـرعـة تـراوح بين ستة اميال واربعين ميلاً في الثانية، وكان في امكانها أنْ تشعل كل شيء قابل للاحتراق..»

«إن الهواء سميك بالقدر اللازم بالضبط لمرور الاشعة ذات التأثير الكيموي التي يحتاج إليها الزرع والتي تقتل الجراثيم وتنتج الفيتامينات، دون أن تضر بالانســان، إلا إذا عرض نفسـه لهـا مدة اطـول من الـلازم. وعلى الـرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور، ومعظمها سام فان الهواء باق دون تلوث في الواقع، ودون تغير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الانسان.

وعجلة الموازنة العظيمة هي تلك الكتلة الفسيحة من الماء، أي المحيط الـذي استمـدت منـه الحيـاة والغذاء والمطر والمناخ المعتدل والنبات، واخيراً الانسـان نفسـه. فدع الـذي يدرك ذلـك يقف في روعـة امـام عظمتـه، ويقـر بواجبـاتـه شاكـراً!» فمن أحكم هذا الأمـر ودبـره لولا ان هنـاك قوة عاقلة مدبرة حكيمة تحسن التصرف في الأمور وتجيد الحكمة والتدبير؟

- ٣ -
الماء

وطريقة تركيب الماء لاتقل عجباً عن خلط الهواء، فهو مركب من مادتين احداهما تحترق والاخرى تساعد على الاحتراق ومع ذلك فحاجة الأحياء اليه مما لايخفى على احد. وقد دبر الله امر امداد الماء للكائنات الحية على طول العـام تدبيـراً محكمـاً والنـاس عنـه غافلون. فقـد جعـل من الـرياح والسحب والثلوج والجبـال وبـاطن الارض واليـنـابيـع عوامـل متعـاونـة في سبيـل امـداد

الكائنات الحية بالماء دائما.

وثم نظرة ثانية، هي أن الماء يخالف قانون السوائل جميعها في طريقة الانجماد، فالسوائل كلها عندما تتجمد تزداد كثافتها ويقل حجمها ويثقل وزنها إلا الماء وحده فهو يكبر حجمه وتقل كثافته ويخف وزنه عكس بقية اخوانه من السوائل، فلم كان ذاك، وعلام هذا الاختلاف. وما سبب هذا الانفراد؟

أليس من اهداف هذا الانفراد حفظ الحيوانات البحرية؟ ألا يدل ذلك على عين ترعى هذه الاحياء وهي سابحة في خضم المحيطات وفي ظلمات البحار ومتاهاتها؟ ألا ترى انه لو أتيح للماء أن يتبع في طريقة انجماده قانون السوائل لهبط الثلج نازلاً وكون طبقة تمنع الاسماك من العيش؟

إن الجليد يطفو ويكون طبقة علوية تحمي الماء السفلي من الانجماد وتحفظ عليه دفأه، ولو انعكس الأمر لتكونت طبقة عظيمة من الثلج داخل الماء قد لاتذيبها حرارة الصيف وفي ذلك مشكلة كبيرة للعالم كله. فمن دبر ذلك كله، ومن تصرف في الماء هذا التصرف العجيب حفظاً للأحياء، ومن لاحظ حاجة الاحياء البحرية ولم يدعها تحت رحمة قانون السوائل؟ إن هذه الأحياء مسلمة امرها لوسطها ولاتستطيع منه فكاكا، فمن جعل لها البحار مهداً تحنو عليها في الشتاء وتصد عنها جيوش الاعتداء، جيوش الطبيعة الغضبى، جيوش البرد؟ من ركب جسمها تركيباً يستطيع أن يواجه الضغوط الهائلة ومن أصلح الماء لها وأصلحها للماء؟!

ذلكم هو الله سبحانه.

- ٤ -
برهان الكائنات الحية

إن الكائنات الحية من نبات وحيوان ـ وحتى إنسان ـ تختلف في اساليب معيشتها تبعاً للوسط الذي تعيش فيه. فالحيوانات التي تعيش في الصحراء تختلف تركيباً وسمتاً ونوعاً عن الحيوانات التي تعيش قرب المياه، وكذلك

النباتات، فالتي تعيش في الصحراء تختلف عن اختها التي تعيش في المياه او قرب المياه، والتي تعيش في المياه الملحة تختلف عن اختها التي تعيش في المياه العذبة. والكائنات الحية التي تعيش في المنطقة الباردة تختلف عن التي تعيش في المناطق الحارة. فبينا ترى الجمل وهو مثل للحيوانات التي تعيش في الصحراء مزوداً بما يؤهله لأن يعيش على النباتات الشائكة وأن يخزن الماء لأيام، ترى الحيوانات التي تعيش في المناطق الباردة صغيرة الجسم سمينته يغطي جسمها أصواف طويلة، أو فراء ثخينة، أو جلود سميكة حافظة للحرارة، حتى ان الكلب الذي يعيش في القطب لايشبه اخاه الذي يعيش في الصحراء. والدب والغزال الذي يعيش في تلك المناطق يختلف عن اخيه في غيرها وقد يختلف عنها حتى في السحنة.. وما يصدق على الحيوانات يصدق على النباتات. فمن الذي زود حيوانات كل منطقة بما يلائمها ويصلحها؟ من الذي زود حيوانات القطب بفرو ثخين وصوف طويل وجلد سميك، ومن نزع هذه عن مثيلاتها في الصحراء؟

من الذي جعل لكل كائن حي مايحفظه لوسطه الذي يعيش فيه حتى لاتعمى عليه وجوه الطبيعة فيهلك؟

من الذي خلص هذه الحيوانات من الحروب التي تشنهاعليها الطبيعة من حر شديد وقر قارص وقلة ماء وجدب، من هو ذاك؟

يقولون إن الحيوانات تكيفت أو كيفت نفسها للمعيشة في هذه الاوساط.

كيف يستطيع الحيوان والنبات أن يكيف نفسه وأن يتصرف في خلقته وطبيعته وهو يولد على هذه الشاكلة؟ كيف يستطيع ذلك وهو لايد له في ذلك كله، لايد له في صوفه وفروه ولا يدله في قصر قامته وطولها.. إنه إن صح ذاك يقتضي وجود الحيوان قبل ان يوجد ليزود خلقته بما يحتاج اليه، ومن يقول بهذا إلا مخرف؟!

ويقولون إن الطبيعة كيفته وزودته بما يحفظه، فليت شعري هل تعقل الطبيعة وتفكر فتزود الحيوانات والنباتات بما تحتاج إليه؟ هل تحس الطبيعة بحاجة الكائنات الحية فتهبها خلقتها؟ أهكذا تنبع الرحمة من قلب الطبيعة

الصماء، أم ان هذا هو الاعتراف الصريح والاقرار السافر بأن هناك قوة عاقلة مدبرة رحيمة تنظر حاجات الكائنات وتزودها بما تحتاجه وينسبونه خطأ أو مكابرة إلى الطبيعة؟ أم أن الطبيعة تعني عندهم قوة حية عاقلة، عارفة مدبرة؟!

- ٥ - [1]

ان كل مخلوق بين امواج متلاطمة من التحولات والانقلابات وهو يسعى لايفاء وظيفته وإبقاء حياته مع أن قوته الجزئية قاصرة عن ذلك جداً. فبالتعاون الحقيقي من قوة كلية فوق قوته الجزئية يتم وظيفته ويحافظ على حياته فمثلاً نرى ان العناصر تمد ذوي الحياة، والسحاب يمد النباتات، والنباتات تعاون الحيوانات، والحيوانات وباقي الكائنات تعاون الانسان، واللبن من الثدي يعين الطفل، حتى ان كثيراً من حاجات ذوي الحياة الخارجة عن قدرتهم ينالونها من حيث لايحتسبون كتعمير ذرات الطعام لحجيرات البدن. إنها حركات تعاون واسعة تشمل جميع ما في الكون.

إن معاونة هذه الاشياءبعضها بعضاً مع أنه لاشفقة فيها ولا شعور يدل على أن هذا يتم بأمر رب ذي جلال وقوة ورحمة.

٦

إن لجسمك مع باقي الكائنات ولاسيما من جهة الرزق وبقاء النوع علاقة ومناسبة وبيعاً وشراء وإن الذرات العاملة في جسمك تحتاط ان تنقطع تلك العلاقة والمناسبة التي بين جسدك وباقي الكائنات احتياطاً، كأنها تنظر إلى جميع الكائنات بترو وترى مناسبتك وعلاقتك بين الكائنات فتسير حسبهما خوفاً من أن تزلزل تلك المناسبة والعلاقة معها. فان لم تكن تلك الذرات الساعية في جسدك مأمورة تتحرك بقانون القدير الازلي لزم أن يكون لكل ذرة عاملة في عينك عين ترى جميع جسدك وجميع الكائنات التي بينك وبينها مناسبة. وأن يكون لها عقل يدرك منابع عناصرك ومعادن رزقك

---

(١) ان هذا الدليل والذي بعده والسابع والتاسع لبديع الزمان النورسي مع تغير يسير في بعض الكلمات.

ويقــول ايضــاً: انــك لو لم تسنــد كل حي وحيــاة وأحيــاء بواسطــة تجلي الاحدية الجامعة، لزم عليك أن تقبل في كل ذي حياة ولو ذبابة او زهرة قدرة فاطرة بلا نهاية وعلماً محيطاً وإرادة مطلقة. . . إذ ان كل ذرة لاسيما اذا كانت من البذرة والنواة لها وضعية منتظمة عجيبة ولها مناسبة مع اجزاء الحي الذي هو جزء منـه بل لهـا منـاسبـات مع نوعـه بل مع المـوجـودات ولها وظائف في نسبها. . فلو قطعت نسبة الذرة عن القدير المطلق لزمك ان تقبل في الذرة عيناً ترى كل شيء شعوراً يحيط بكل شيء.

- ٧ -

برهان الوحدة

إن في هذا الوجود وحدة شاملة بين موجوداته واسبابه، وإنه إن كان لموجود وحدة فصدوره لايكون الا من واحد (الواحد لايصدر إلا عن الواحد). فالبداهة حاكمة بأن ذا الحياة الموزون بميزان حساس وانتظام كامل لايصدر إلا عن يد واحدة، يدحكيم قدير لا من أياد عمياء متعددة متضادة مختلفة لأن اسناد ذلك الـوجـود الى الأسبـاب الجـامدة الجاهلة المتجاوزة المختلطة التي لاشعور لها ولاسمع ولابصر لايقبله إلا من فقد عقله.

ويقــول ايضــاً في هذا المعنى: إن نهـايـة الاختـلاط والاشتبـاك في افـراد الانواع المختلفة مع غاية الامتياز والتشخيص بلا مرج ومزج وبلا خلط وغلط تختص بمن هو بصير بكل شيء وشهيد على كل شيء.

- ٨ -

يقول أحد العلماء في المعنى السابق: إن اول سؤال يرد: ماهو العامل الموفق بين فاعليات هذه القوى المتضادة العمياء هذا التوفيق الدائم المطرد البديع لو أن الأمر - كما يزعمون - من تسلط تلك القوى العمياء على الكون؟!

وما أبدع ما يقوله عالم آخر في هذا الخصوص:

. . . ياسبحــان الله! أليست وحــدة النظــام بين هذه الكتـائب المختلفة

الطبيعة، المتنوعة العمل، من الكائنات السماوية والارضية آية على وحدة القيادة العامة التي تشرف عليها، وعلى وحدة الخطة المرسومة التي يسير على هداها كل جهاز من اجهزة هذه الآلة الكبرى؟

- ٩ -

وقع الاحتياج للتداوي مرة إلى معجون فراجعنا (دار الادوية) وكان فيها مئات من القوارير المملوءة من الأدوية المختلفة فأخذنا واحداً من المعاجين الموجودة هناك وحللناه فتبين لنا أنه اتخذ من تلك الأدوية التي في القوارير بأن اخرج من قارورة درهمان ومن اخرى ثلاثة ومن غيرها خمسة وهكذا أخرج منها المقدار الذي عرفه الطبيب بميزان حساس وموازنة تامة بحيث لو كان نقص أو زاد ذرة على المقدار الذي قدره الطبيب لأدى إلى عكس النتيجة وخلاف المطلوب فأخذنا ذلك المعجون وقد أمن حاجتنا. . . فلو وقع بين تلك القوارير تصادم صدفة بزلزلة تحت تلك الدار وأدى ذلك التصادم إلى انكسار القوارير وخروج الأدوية منها، فهل يمكن أن يكون المقدار الخارج من كل قارورة هو المقدار الذي اخرجه الطبيب بميزانه الحساس بلا زيادة ولا نقصان ويجتمع كل ما خرج بنفسه ويتشكل المعجون المطلوب؟ وهل يمكن أن يكون ذلك دائماً وعلى وجه الشمول وفي كل دواء وكل محل؟! كلا، والف كلا.

كذلك ان كل ذي حياة (معجون حي) ركب من اجزاء كثيرة وعناصر مختلفة مأخوذة من مواد متباينة موزونة بكمال ميزان فلو اسند هذا (المعجون الحي) إلى الأسباب الجامدة والعناصر الصامتة وقيل ان الموجد هي الأسباب ليس غير لكان هذا الاسناد اقبح وأضل من اسناد (المعجون الطبي) إلى المصادمة وخروج الأدوية بكمال النسب والميزان.

نستنتج من هذا ان مواد الحياة في هذا العالم يأخذها الحكيم الازلي بميزان حساس بعلم محيط وارادة شاملة فيخلق منها ذلك المعجون الحيواني وليس ذلك من العناصر والطبائع والاسباب العمي الصم.

- ١٠ -

قرأنـا مرة: ان عالمـاً نبـاتيـاً صاح يومـاً وهـو في معمله «لقـد رأيت الله!» فدهش تلاميذ له كانوا على مقربة منه وسألوه عما اصابه فقال لهم:

لاتراعوا، فقد اراني المجهر من دقة الصنع وبراعة الوضع في هذه الزهرة، ماحيّـر عقلي وأخـذ بلبي وأثبت لي أن هذا الابـداع كله لايمكن ان يحـدث بفواعل طبيعية لاتدرك ماتصنع.

- ١١ -

قال احد العلماء: «إن حجم الكرة الارضية، وبعدها عن الشمس ودرجة حرارة الشمس وأشعتهـا البـاعثـة للحيـاة، وسمـك قشـرة الارض وكمية الماء، ومقدار ثاني اوكسيد الكاربون وحجم النتروجين، وظهور الانسان وبقاءه على قيد الحياة، كل اولاء تدل على خروج النظام من الفوضى، وعلى التصميم والقصـد، كمـا تدل على انـه طبقـاً للقـوانين الحسـابيـة الصارمة ماكان يمكن حدوث كل ذلك مصادفة في وقت واحد على كوكب واحد، مرة في بليون مرة.»

- ١٢ -

برهان التدبير

يقول الاستاذ محمد فريد وجدي: نعم ان للوجود روحاً كما له مادة، ألا ترى فيـه تحليـلا وتـركيبـاً، وايجـاداً واعـداماً، وتصويراً وابداعاً وتوفيقاً ونظاماً، وتدريجاً واحكاماً؟ وفوق هذه المظاهر كلها الا ترى فيه ترقياً مطرداً وتكملا متواصلا؟

ارأيت زهـرة شذيـة فسألت نفسـك كيف تكـونت من هذه الارض الميتـة، وكيف تألفت الوانها المعجبة، وتركب عرفها الفياح ولطفت حتى لايحس بها؟ ارأيت الماء الذي تشرب منه شبماً زلالا مم نشأ وكيف لاينضب؟... وهل حانت منك لفتة للطيـور في اوكـارهـا فرأيت كيف يتعاون الذكر والانثى على بنائها، وايثائها بكل مايجعلها صالحة إيواء بيضهما وكيف يتبادلان احتضانها ويعملان على فقسها، ثم كيف يترافدان على تربية صغارهما وتهيئتها للحياة

على مثالها؟ وهل راقبت الحشرات في ضعفها وسذاجة تركيبها، ورأيت كيف تهتدي الى ما يصلحها ويحفظ انواعها، وكيف تقوم على ذلك من اساليب ووسائل تعجز أقوى العقول عن تدبيرها؟

وهل شاهدت انواعا اخرى من الحيوانات، فرأيت كيف تقوم على اصول وقوانين ومحاولات تصون بها ذواتها وتحفظ انواعها؟... هل هذا الترتيب المحكم، والتكوين المنظم، والاسباب الموجودة للكائنات، والعلل الحافظة لها، والعوامل الدافعة لترقيتها، والنواميس العاملة لتكوينها، هل كل هذه المجموعة الضخمة من الاسباب والعلل والنواميس والعوامل، في كون يغلي بالاحياء، ويفيض بالكائنات، قائمة على مجرد الخبط والاتفاق ومحرومة من روح يدبرها ويهيمن على اطوارها؟

تستنيم بعض العقول إلى كلمة (الطبيعة) فيجدون فيها سكناً لأرواحهم بل خدراً لعقولهم ولو تأملوا لعلموا أن الطبيعة كلمة تطلق على المجموعة التي نعنيها من الاسباب والعوامل، فان راق لبعضهم أن يحتفظ بهذا اللفظ قلنا هل الطبيعة تستطيع أن تعمل بغير روح وأن تفعل مجردة عن الحياة؟..

– ١٣ –

ثم يقول الاستاذ في بحث الوحي بحجج دامغة:

.. خذ في يدك بزرة تفاح وتأملها، تجدها تكاد لاتفترق عن الحصاة الميتة. فان قيل لك ولم تكن رأيت ذلك من قبل: إن هذه البزرة توضع في الأرض فتنبت، ويأخذ هذا النبات في النمو حتى يصير شجرة ثم تزهر فتنفرج زهورها عن ثمر التفاح اليانع في مذاقه الشهي، وأريجه الشذي، ولونه الوردي، وملمسه الحريري، لكذبت محدثك واتهمته بالازراء بك والسخرية من عقلك ذلك لأنك لاتعقل أن هذه البزرة الغافلة عن وجودها تنفرج متى غرست في الأرض وسقيت بالماء عن جذير وسويق، الأول يغوص في الطين

يتطلب مواده الذائبة وأملاحه المقومة، ولا يرتفع إلى سطحه. والثاني يرتفع الى سطحه متطلباً الهواء والنور، ومهما حاولت أن تغير وضع هذين العضوين فلا تستطيع ذلك مهما جهدت فيه. أليس هذا الأمر وحده الذي ليس له علة معقولة يدلــك على فعل الـروح الالهي فيـه، وإلى دفعـه لكـل من هذين العضـوين الغافلين عن وجودهما إلى موضعيهما، اللذين لابد من وجودهما فيهما لأداء وظيفتهما في الانبات؟ أليس هذا الامر وحده يدل على هداية الحياة العامة لهذا النبات الضعيف، وعلى دفعها لكل عضو فيه الى موضعه؟

ثم اذا تأملت كيف يهتدي ذلك الجذير وهو مغروس في عيلم من المواد المختلفــة التي لا تحصى كثرة لانتخاب العنـاصـر التي تتألف منهـا شجـرة التفاح، وتنتج زهرتها وتثمر ثمرتها، وتؤاتيها بعرفها المعروف ومذاقها المعهود، لو تأملت في هذا وفي جميع شؤون المملكة النباتية فاجأت الروح المدبر وهو يهدي هذه الكائنات الضعيفة الى مايصلحها، ويفعل في تكوينها فعلا مباشرا لا يغبى عنه الامن ليس له بصر.

ثم دع المملكـة النبـاتيـة وارتق الى المملكـة الحيـوانيـة. وانظر الى تلك الكائنات الساذجة المكونة من خلية واحدة وهي أبسط ما يمكن تصوره منها، تجدها ممتعة بالعلم الذي يحفظ وجودها ويصون نوعها. وبالمحاولات التي لا غنى لها في الدفاع عن نفسها، وفي الاحتيال للخلاص من ورطتها.

فمن اين اتى هذه الكائنات هذا العلم وهي محرومة من الاعصاب ومن المخ معا؟ أليس هذا العلم لديها إلهاماً من خالق الوجود نفسه؟

من الذي ادرى البعوضة انها يجب ان تبيض على سطح الماء الراكد وانها مضطرة لوضع بويضاتها في قوارب صغيرة تعوم على سطحه؟ ومن الذي وضع في جثمانها أجربة تجف بمجرد ملامسة الهواء تصلح لعمل تلك القوارب؟ ومن اشعرها بأن تلك المادة تتعزز بالضغط عليها، ومن لقنها صناعة تلك القوارب واضطرها لوضع بويضاتها فيها، وهي لاتعيش حتى ترى ذريتها خارجة منها، ولم تر هي امهاتها تفعل ذلك قبلها؟ وقس على البعوض جميع انواع الحشرات

والهوام مما لاتحصى انواعها كثرة، وكلها تلهم الهاما. وتعيش على اعجب مايتخيله المتخيلون من التصرفات المدهشة.

هذه امور ليست غريبة فحسب، ولكنها محيرة للعقل أيضاً، ومجبرة له على الاعتقاد بأن عالم الحيوانات على اختلاف انواعه، وتباين وسائل حياته، وتعدد محاولاته، يحيا تحت عناية الروح الالهية تمده بالالهامات الضرورية لحفظ ذاته ونوعه، بحيث لو تركته طرفة عين لهلك.

أترى أن هذه الحيوانات كانت تستطيع أن تبقى في معمعان هذه الهيجاء الحامية، التي تشنها الطبيعة عليها بعوالمها المختلفة لولا هداية الرحمة الالهية لها وعملها المباشر على صيانتها من معاطبها وإرشادها إلى وجوه نجاتها؟

لقد وصلنا إلى الانسان، فهل يتلقى مدداً من الالهام الالهي على نحو مايتلقاه النبات والحيوان؟ أما المدد الجثماني فلا يمكن التشكك فيه. فانك تبصر ولا تدري مايحدث في بلورية عينيك من التحدب والانبساط على حسب ابعاد المرئيات، ولا بحدقتيهما من الضيق والاتساع على قدر كثرة النور وقلته، وتأكل وتهضم وانت غافل عما يحدث في احشائك من التحليل والتركيب، والتصفية والتصعيد، حتى ليخرج من الخبز والخضر والفاكهة التي تتعاطاها عضل ودم وعظم وشعر وأوتار وغضاريف وأعصاب. فمن الذي يدبر كل هذه الاجهزة الدقيقة واكثر اهل الأرض لايعلمون من امرها شيئاً؟ ومن الذي يهديها إلى وظائفها ويقودها إلى ما يقومها ويصلحها؟.

— ١٤ —
العين والرؤية

وانظر بعد في الانسان نفسه فان اعضاءه وتركيبها ما يعجز عنه اعظم العقول. وخذ العين مثلا فان طريقة تركيبها تدل على ان هناك عارفاً بنواميس النور عالماً بقوانين الضوء ركب عدساتها وحدبها وقعرها، وصنع طبقاتها، ووضع عضلاتها، ولون حدقها وقرنيتها بموجب تلك النواميس، ولو اختلت اقل

اختـلال لبطلت الـرؤيـة. فالضـوء يمـر فيهـا من وسط إلى وسط آخر يغايره في الكثافة ومن عدسة إلى عدسة لتجمعه وتفرقه حسب قانون انكسار الضوء في العدسات حتى تجتمع الصورة على الشبكية مصغرة مقلوبة. وتطرأ عليها بعد عمليات خفية حتى تتضح الصورة في صورة صحيحة وبحجمها الاعتيادي.

«وقـد كانت العـدسـات في التلسكـوبـات الصغيـرة والكبيـرة مصنـوعة من كتل زجاجية كل منها محدبة السطحين فلما رأى العلماء أنها لاتفي بالغرض لأن مناطق من النور الملون تتكون حول الشبح الذي ترسمه بسبب انحلال النور الى ألوانه حين مروره في المنشورات الزجاجية التي تتكون منها العدسة اتجهوا الى محاكاة تركيب العين البشرية لأن لها اكثر من وسط واحد لكسر الاشعة وجمعها. ففيها العدسة والرطوبتان الزجاجية والمائية فصنع العلماء للتلسكوب عدستين، الاولى كثيفة محدبة السطحين والثانية أقل من الاولى كثافة وتحدباً ولصقوا الاولى والثانية بمادة تسمى (بلسم كندا) ينكسر النور فيها مثل انكساره في الزجاج.»

ألا يصـدق بعـد هذا قول ديكـارت: ان الـذي خلق العين يعلم نواميس الضوء فخلقها بموجبها؟

يقـول أ. كريسي موريسـون في كتابـه (العلم يدعـو يمـان) ص ١١٣ «إن عدسات عينك تلقي صورة على الشبكية، فتنظم العضلات العدسات بطريقة آلية إلى بؤره محكمة. وتتكون الشبكية من تسع طبقات منفصلة، هي في مجمـوعهـا ليست اسمك من ورقـة رفيعـة. والطبقـة التي في اقصى الـداخل تتكون من اعواد ومخروطات، ويقال ان عدد الاولى ثلاثون مليون عود، وعدد الثانية ثلاثة ملايين مخروط. وقد نظمت هذه كلها في تناسب محكم بعضها بالنسبة إلى بعض وبالنسبة الى العدسات، ولكن العجيب أنها تدير ظهورها للعدسات وتنظر نحو الداخل لانحو الخارج. وإذا استطعت أن تنظر في خلال العدسات فانك ترى عدوك مقلوب الوضع، والجانب الايمن منه هو الأيسر. وهـذا أمر يربكـك إذا حاولت ان تدافـع عن نفسـك. ولـذا فان الطبيعة قد

عرفت بطريقة ما ماذا سيحدث، ولذا أجرت ذلك التصميم قبل ان تقدر العين على الابصار، ورتبت اعادة تنظيم كاملة عن طريق ملايين حويطات الاعصاب المؤدية إلى المخ. ثم رفعت مدى ادراكنا الحسي من الحرارة الى الضوء، وبذا جعلت العين حساسة بالنسبة للضوء. وهكذا نرى صورة ملونة للعالم من الجانب الايمن الى فوق، وهو احتياط بصري سليم.

وعدسة عينك تختلف في الكثافة، ولذا تجمع كل الأشعة في بؤرة. ولايحصل الانسان على مثل ذلك في اية مادة من جنس واحد كالزجاج مثلا. وكل هذه التنظيمات العجيبة للعدسات والعيدان والمخروطات والأعصاب وغيرها لابد أنها حدثت في وقت واحد، لانه قبل أن تكمل كل واحدة منها. كان الابصار مستحيلا فكيف استطاع كل عامل ان يعرف احتياجات العوامل الأخرى ويوائم بين نفسه وبينها؟!»

وعلى ذكر العين، أرى من الجميل أن انقل إليكم رأياً لعالم كبير حول الرؤية وهو رأي طريف مبسطاً منه مايحتاج إلى التبسيط، يقول: «العين آلة تخدم ارتسام صور الأشياء فينا (أي ترسم صور المرئيات في شبكتينا داخل العين) وعليه: فهل الرؤية (رؤية العين للجسم) تتعلق بهذه الصور المرتسمة فينا ام تتعلق بالأجسام ذاتها؟ (أي هل رؤيتنا متعلقة بصور الأجسام المرتسمة على الشبكية أم تتعلق بالاجسام الخارجية نفسها) فان كان الاول كما يقول علماء الطبيعة (أي إن كان قولهم بأن رؤيتنا للأشياء حاصلة أو متعلقة بارتسام صورتها في الشبكية فيحق لنا أن نسأل هذا السؤال):

فكيف نشعر برؤية الاجسام والأشياء نفسها بكامل حجمها من رؤية صورها المرتسمة فينا (اي كيف نستطيع من صور الاجسام المرتسمة في باصرتنا أن نرى الأجسام نفسها على ما هي عليه من الكبر والصغر) ونحن نميز الفرق بين رؤية الأشياء نفسها ورؤية صورها؟.

فلو كانت رؤيتنا مثلا للقصر الكبيرة الماثل امامنا تعلقت بصورته المرتسمة في باصرتنا (هذه الصورة) الآتية إلى الباصرة بمخروط الضوء لاقتصر إدراكنا على رأس المخروط من دون شعور بقاعدته الكبيرة ولكنا رأينا القصر اصغر

شيء مع أنا نراه على حسب قاعدة الضياء المتصلة بالقصر المتناسبة مع حجمه الكبير لاعلى حسب رأسه (رأس المخروط الضوئي) المتصل بأعيننا. فالعين أداة لرؤية الاشياء على قدرها من الصغر والكبر لا على قدر حدقتها كما تصور آلة التصوير الشمسي على حسب عدستها الكبيرة او الصغيرة. أما فعل الرؤية التي لاتوجد في اي آلة تصوير غير العين فهي حادثة روحية لا مادية.»

ـ ١٥ ـ

الأذن وباقي الأعضاء

وتركيب الأذن لايقل عجباً عن تركيب العين فهو يتمشى مع قوانين الصوت وسنن التموج. فالصيوان والطبلة والمطرقة والسندان وأوتار كورتي كلها آلات لاستقبال الصوت وجمعه حسب سننه والتأثر به وايصاله إلى المخ ولو اختلت آلة واحدة لاختل السمع، أفلا يحق لنا بعد هذا أن نستشهد بقول ديكارت: ان الذي خلق الأذن ركبها بموجب قوانين الصوت؟ «إن جزءاً من اذن الانسان هو سلسلة من نحو أربعة آلاف حنية (قوس) دقيقة معقدة، متدرجة بنظام بالغ، في الحجم والشكل. ويمكن القول بأن هذه الحنيات تشبه آلة موسيقية، ويبدو أنها معدة بحيث تلتقط، وتنقل الى المخ، بشكل ما، كل وقع صوت او ضجة، من قصف الرعد الى حفيف الشجر فضلا عن المزيج الرائع من انغام كل اداة موسيقية في الأوركسترا، ووحداتها المنسجمة. لو كان المراد عند تكوين الأذن أن تحسن خلاياها الأداء كي يعيش الانسان، فلماذا لم يمتد مداها حتى تصل إلى ارهاف السمع؟ لعل «القوة» التي وراء نشاط هذه الخلايا، قد توقعت حاجة الانسان في المستقبل إلى الاستمتاع الذهني، أم ان المصادفة قد شاءت تكوين الأذن خيراً من المقصود؟.»[1]

(١) العلم يدعو للايمان ص ١١٧

وقل مثل هذا عن باقي الأعضاء صغيرها وكبيرها:

فلسان المزمار مثلا، وضعه الخالق في سقف الحلق لينظم عمليات الا كل والشرب ويمنعها من الدخول إلى الرئتين، فهو بمثابة الحارس الأمين الذي يعمل دوماً ونحن عنه غافلون. إن الذي ثبت هذا في مكانه - ولولاه لهلك الانسان - لايعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض.

وإن الذي وضع البنكرياس والصفراء في الجوف عالم بأنواع الأغذية التي يحتاجها الانسان فزوده بما يحتاجه لتحليلها وهضمها.

«... عاش الانسان ملايين السنين قبل أن يعرف وظائف المعامل الكيموية الصغيرة المعروفة باسم الغدد الصماء، التي تمده بالتركيبات الضرورية له ضرورة مطلقة. والتي تصنعها وتسيطر على وجوه نشاطه. وفضلا عن ذلك، فان تلك المواد التي بلغت من القوة ان جزءاً من بليون منها تحدث آثاراً بعيدة المدى، هي مرتبة بحيث ينظم كل منها غيرها، ويضبطه ويوازنه. ومن المتفق عليه انه اذا اختل توازن هذه الافرازات المعقدة تعقيداً مدهشاً. فانها تحدث اختلالاً ذهنياً وجثمانياً بالغ الخطر. ولو عمت هذه الكارثة لاندثرت المدنية وانحطت البشرية إلى حالة الحيوانات، هذا إذا بقيت على قيد الحياة.

على أننا إذاأكدنا هذه الضوابط والموازين والقيود وحدها، التي بدونها تتوقف الحياة يواجهنا بمسألة حسابية تستحق قدراً كبيراً من العناية عند انصار المصادفة [1]!»

ولو أردنا أن نستقصي كل جليل وصغير لطال بنا المقام وتشعب الحديث ولم نخرج عن الانسان نفسه.

ولو أردنا ان نستقصي ما احتاط الخالق للانسان والحيوان وما زوده في جسمه وفي الخارج من اساليب الدفاع عنه وحفظ ذاته لأسهبنا الكثير. وكلها تدل اتم دلالة واكملها على أن للانسان خالقاً مصوراً وإلهاً مبدعاً يحيط علمه بكل شيء ولا يحيط بعلمه شيء.

---

(١) العلم يدعو للايمان ص ١٦٠

برهان التسخير

نظرة الى الانسان في هذا العالم تجده أنه هو المقصود بالخلقة وأن ما سواه له تبع، وان له في حياته المادية والنفسية مايشعره بذلك.. فهو الملك المبجل في هذه الدنيا..

سُخّر له الهواء فاخترق اجوازه وذلل سننه، وسخر له الماء فقهره بالقناطر والسدود، وعبره بالقوارب والبواخر، وغير مجراه واستفاد من مساقطه، واستخدم النار فألان بها الحديد واستخدمها لما يريد، واستعان بالهواء عليها يضرمها ويوريها، وبالماء يخمدها ويطفيها، واستعان بكل على صاحبه، ولم يدع حبله على غاربه.

وسخر له عالم المعادن ما لم يسخر لغيره فاستدره من مناجمه واستخرجه من أعمق الطبقات. استخرج الحديد وجعله طوع يديه، وصنع منه كل ما يحتاج إليه وعمل باخوته من المعادن ما عمل فيه حتى كشف المستور وفتح المغلق.

وعمل في عالم النبات ما لم يعمل فيه غيره من المخلوقات، فحرث وغرس وزرع وحصد ونقل وكيّف وزاوج وجمع وعرف شروط الانبات والتكثير واستخرج منها ماشاء لما شاء.

كما سخرت له الحيوانات، فقهر السباع والأسود، وجعلها رهينة الأقفاص والقيود. وروّض الفيلة وذلل له الجمل الكبير فاقتاده من أنفه، وسخرت له الخيل والبغال والحمير ليركبها وزينة ويشد عليها رحاله، وتحمل امتعته وأثقاله.

كما اصطاد الطيور وآلفها واستأنسها واستطاع ان يستخدمها، وكان في ذلك كله كما قال تعالى «وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه» «وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الانهار. وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار».

كيف حدث هذا التسخير؟ ولم انفرد به الانسان لو كان الأمر قائماً كله على التخبط؟ وكيف حدث هذا التنظيم في التذليل لو كان الأمر قائماً كله على العبث؟ كيف يستعين الانسان ببعض الحيوان على بعضه، وببعض المعادن على اختها، وبالقوة على ضدها؟

لم انفرد الانسان بهذا الاستخلاف؟ ومن أفرده؟ ومن ذلل له كل هذه الاشياء؟ وسخر له كل هذا النواميس؟ لم لا يكون هناك مخلوق آخر ينازعه السيادة، ويتيه عليه بنعمة تعادل نعمة العقل أو تبزها؟!

من قال للتطور - إن صح - أن ينتهي إلى الانسان، ولم لا يحدث تطور آخر وقفزة تالية تنشيء مخلوقاً جديداً يكون له الانسان كباقي المخلوقات للانسان مذللا مسخراً؟

أترى أنه لو حدثت مظاهرة غير سلمية من الخلائق ضد بني الانسان وكل منه موتور، أترى أنه لو اجتمعت كلمتها وتوحدت رايتها وأعلنت يوماً للانقضاض عليه، الدنيا بما فيها من وحوش كاسرة وزواحف سامة وحشرات متباينة وطيور جارحة وأتت كلها فرقاً منتظمة تزحف من جميع جهاتهم ومن فوقهم ومن اسفل منهم، ماذا كان سيحدث؟

إنه تخرج احياناً عساكر من النمل فتهرب من وجوهها قرى كاملة، ماذا إذن لو توحدت الجهود؟ أترى أنه سيبقى بشر على وجه البسيطة؟ من صرف انظارها عنه، وأشاح بوجهها إلى غيره، وملأ قلوبها بالرعب منه؟ ذلكم هو الله الذي سخر لنا ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه واسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة.

يقول أ. كريسي موريسون في كتابه (العلم يدعو للايمان) « ما أعجب نظام الضوابط والموازنات الذي منع اي حيوان، مهما يكن من وحشيته، أو ضخامته، أو مكره، من السيطرة على العالم منذ عصر الحيوانات القشرية المنجمدة! غير ان الانسان وحده قد قلب هذا التوازن الذي للطبيعة بنقله النباتات والحيوانات من مكان إلى آخر، وسرعان ما لقي جزاءه القاسي على ذلك، ماثلا في تطور آفات الحيوان والحشرات والنبات.

والواقعة الآتية فيها مثل بارز على أهمية تلك الضوابط فيما يتعلق بوجود الانسان : فمنذ سنوات عديدة زرع نوع من الصبار Cactus في استراليا ، كسياج وقائي . ولكن هذا الزرع مضى في سبيله حتى غطى مساحة تقرب من مساحة انجلترا ، وزاحم اهالي المدن والقرى ، وأتلف مزارعهم ، وحال دون الزراعة ولم يجد الأهالي وسيلة لصده عن الانتشار ، وصارت استراليا في خطر من اكتساحها بجيش من الزرع صامت ، يتقدم في سبيله دون عائق ! وطاف علماء الحشرات بنواحي العالم حتى وجدوا أخيراً حشرة لا تعيش إلا على ذلك الصبار ولا تتغذى بغيره ، وهي سريعة الانتشار وليس لها عدو يعوقها في استراليا . وما لبثت هذه الحشرة حتى تغلبت على الصبار ، ثم تراجعت ، ولم يبق منها سوى بقية قليلة للوقاية ، تكفي لصد الصبار عن الانتشار الى الابد . وهكذا توافرت الضوابط والموازين ، وكانت دائماً مجدية .

ولماذا لم تسيطر بعوضة الملاريا على العالم إلى درجة كان اجدادنا يموتون معها ، أو يكسبون مناعة منها ، ومثل ذلك أيضاً يمكن أن يقال عن بعوضة الحمى الصفراء التي تقدمت شمالاً في أحد الفصول حتى وصلت إلى نيويورك . كذلك البعوض كثير في المنطقة المتجمدة . ولماذا لم تتطور ذبابة « تسي تسي » حتى تستطيع أن تعيش أيضاً في غير مناطقها الحارة وتمحو الجنس البشري من الوجود ؟ يكفي ان يذكر الانسان الطاعون والأوبئة والجراثيم الفاتكة التي لم يكن لها وقاء منها حتى الأمس القريب ، وأن يذكر كذلك ما كان له من جهل تام بقواعد الوقاية الصحية ، ليعلم أن بقاء الجنس البشري رغم ذلك يدعو حقاً إلى الدهشة ! . . .

إن الحشرات ليست لها رئتان كما للانسان ، ولكنها تتنفس عن طريق أنابيب . وحين تنمو الحشرات وتكبر ، لا تقدر تلك الانابيب أن تجاريها في نسبة تزايد حجمها . ومن ثم لم توجد قط حشرة اطول من بضع بوصات ، ولم يطل جناح حشرة إلا قليلا . وبفضل جهاز تكوين الحشرات وطريقة تنفسها ، لم يكن في الامكان وجود حشرة ضخمة . وهذا الحد من نمو الحشرات قد كبح جماحها كلها ، ومنعها من السيطرة على العالم . ولولا

وجود هذا الضابط الطبيعي ، لما أمكن وجود الانسان على ظهر الأرض .
وتصور إنساناً فطرياً يلاقي زنبوراً يضاهي الأسد في ضخامته ، أو عنكبا « عنكبوتاً » في مثل هذا الحجم !

ولم يذكر إلا القليل عن التنظيمات الأخرى المدهشة في فيزيولوجيا الحيوانات ، والتي بدونها ما كان اي حيوان ـ بل كذلك اي نبات ـ يمكن ان يبقى في الوجود . غير ان هذه الحقائق قد بلغت من الاهمية العظمى بحيث يجب ذكرها . »

ـ ١٧ ـ

قال أحد العلماء : إن تكون الانسان بنفسه من النطفة المهينة من غير مكوِّن ، ومن غير شعور بذلك التكون الحاصل من نفسه ، مستحيل عند العقل .

ومع هذا فبلوغه الحلم وانكشاف غريزته الجنسية يكون بمثابة تولد جديد منه إلى العالم وقدوم جديد ، وعندئذ يجب عليه ان يفهم الدافع الخفي القوي الذي دفع أبويه لابقاء النوع الانساني من حيث لا يشعر على اكثر تقدير ، وهما ليسا بموجودين هذه الغريزة فيهما بل وجداها حاضرة لما جاء أوانها كما وجدها حاضرة في نفسه ، فمن الذي اوجدها وأعدها فينا ؟

ـ ١٨ ـ
برهان الحياة

ان في الانسان حياة وشعوراً ـ وهذا لاينكره ولا يجهله احد ـ فان كان الكون كله فاقد الحياة فاقد الشعور فمن أين اتى الانسان هذا الشعور، ومن اين اته الحياة و «فاقد الشيء لايعطيه»؟ إنه إن لم يكن في الكون كله من يفيض على الانسان بالحياة والشعور فمن وهب للانسان حياته وشعوره؟!

إنه سؤال لم يزل جوابه في المجهول، ولم يجرؤ أحد أن يجيب عنه حتى أن داروين لم يقل ـ بعد أن عجز ـ سوى أنه: لايهمنا من اين اته الحَياة!!

وعلى كل فان الاهمية لايقدرها داروين، فان كان الامر لايهمه فهو يهم[نا] جداً.

- ١٩ -

إن في الانسان عقلاً وتفكيراً.. فمن زود الانسان بعقله وتفكيره إن كان الكون كله خالياً من العقل والتفكير؟

إنه إن لم يكن في الكون قسطاس للعقل والتفكير فمن اين أتانا العقل والتفكير؟!

- ٢٠ -
أصل الحياة

يقول بعض الطبيعيين: إن تركيب الخلايا هذا التركيب الكيمياوي المعروف وبهذه النسب الثابتة من العناصر المختلفة هو الذي منحها الحياة، ومنّ عليها بالاحساس، ووهبها هذه الصفات.

وأبسط ما يرد عليهم: انه لقد اظهر لكم المختبر جميع اجزاء الخلية وعرفتم جميع عناصرها وأوزانها ونسبها وتركيبها، فلم إذن لم تفلحوا في إنشاء خلية واحدة تنبض بالحياة وتتغذى وتنمو وتشعر وتتكاثر وتحتاط في الدفاع عن نفسها احتياطاً يعجز العقول ويأخذ بالألباب شأن «ذوات الخلية الواحدة»؟

إنه طلب معقول كان وجهه أحد الكتاب المعروفين «هذه عناصر الخلية، هاتوا لنا خلية حية»

وهب أنهم أتوا بالخلية الحية ـ كما قال احد العلماء ـ، فهل ستملك صفات الخلية من نمو وتكاثر واحساس وباقي الصفات التي تملكها نظيراتها من الخلايا الحية؟

وانه إذا كانت اتخذت خلية حية ليعمل على منوالها ـ مثلاً ـ فهل ستكون

الخلية الجديدة تملك نفس خصائص الخلية التي اتخذت انموذجاً وتقوم بنفس المهمة؟

وإذا اتخذ إنسان ما ليعمل على منواله فهل سيكون الانسان الجديد - إنسان المختبر - يملك نفس خصائص وميزات وغرائز واحتمالات الانسان الذي اتخذ أساساً للعمل؟

هل تستطيع اجهزتكم أن تكوّن لنا (نواة تمر) لها صفات النواة وخصائصها: خشبة صغيرة متى غرست في الأرض انفرجت عن جذير وسويق وامتدت ضاربة في الهواء تحمل الرطب الجني والتمر الشهي؟

هل تستطيع اجهزتكم أن تكون (بذرة) مرة قاطعة كبذرة المشمش مثلاً أو بذرة البرتقال حتى إذا غرست في الأرض وسقيت بالماء وصارت شجرة وارفة أتت بالثمار الحلوة والفاكهة الشهية؟

كيف يعقل - ياهؤلاء - أن يكون تركيب الخلية أصل حياتها، والحياة هي التي تغذيها وتنميها وتحول المواد الجامدة فيها إلى مواد حية؟

إن الحياة هي التي تحفظ على الخلية وجودها، وتجمع عناصرها، وتمسكها من التحلل والافتراق، فان فارقتها الحياة ذهب وجودها. واختفى تكوينها، وافترقت عناصرها، وتحللت موادها. إن الحياة هي التي مسكتها من التفرق، وعصمتها من التحلل، وبدونها تفرق شملها وتمزقت أوصالها. كيف يعقل إذن أن يكون تركيب الخلية أصل حياتها مع أن الحياة هي التي حفظت على الخلية تركيبها ولولاها لتعفنت وضربتها الرياح وذهبت سدى، ولتحللت عناصرها وتمزقت أوصالها.

إن الحياة هي التي تجعل من المواد الميتة، ومن العناصر المتحللة مواد حية تضع كلّ مادة بمحلها، وتجمع بين هذا وذاك بنسب ثابتة وتحفظ تماسك هذه المواد على الوضعية التي انتجتها.

إن الكائن الحي ذا الخلية الواحدة مثلاً وهو مخلوق بسيط: من يحفظ مواده من أن تعبث به الرياح؟ من يمسك عناصره حتى لاتحطمه الطبيعة بحملاتها الشديدة! إنها الحياة.

ترى. ماذا سيحدث لو فارقتها الحياة؟ إن هذه المواد المتماسكة التي يزعم الزاعمون ان تماسكها وتركيبها هو أصل الحياة ستفقد تماسكها، وتتحلل تراكيبها بعد خروج الحياة منها..

«لقد عجزت الطوائف عن بيان السبب لحياة الجراثيم، حياة نباتية أو حيوانية خصوصاً بعدما تبين لهم: أن الحياة فاعل في بسائط الجراثيم موجب لالتئامها. حافظ لكيانها، وإن قوتها الغاذية هي التي تجعل غير الحي من الأجزاء حياً بالتغذية، فاذا ضعفت الحياة ضعف تماسك البسائط وتجاذبها ثم صارت إلى الانحلال [1].»

إنه كما قال (جون هنتر) اكثر من مرة وأيده الباحث الكبير «توماس هكسلي» أحد أعضاء المجمع العلمي الانجليزي في كتابه (المدخل على ترتيب الحيوانات) (إن الحياة هي علة الاجسام لا انها نتيجة لها).

ومن تعليلات توماس هكسلي لصحة هذا القول: إنه في (جماعة الأميب من الحيوانات الساذجة) لايصادف الباحث مهما توسل بالآلات الدقيقة التي نملكها اليوم اي اثر للتركيب الجثماني فيها. فان هذه الاحياء لاشكل لها ومجردة من الأعضاء ومن الاجزاء المحدودة، ومع ذلك فهي تملك الخصائص والميزات الاصلية للحياة، حتى انها لتستطيع أن تبتني لنفسها قواقع ذات تراكيب معقدة أحياناً وعلى غاية ما يمكن من الجمال).

وعلى كل فان ثبت هذا أو انتقض فلا يهدم الحقيقة التي قررناها اولاً.

وجميل ما يقوله أ. كريسي موريسون عن الحياة:

«الحياة تستخدم ذرات الأرض، وتخلق عجائب جديدة طبقاً لقوانين الكون... استخدمت الحياة طاقة الشمس، ومزقت ذرات الماء المتحدة وفصلت الكربون البليد من الاوكسجين وحولته إلى ثاني اوكسيد الكربون، وخزنت في الأرض وفوق سطحها، الموارد الوحيدة للنار [1].

---

(١) الرد على الدهريين - جمال الدين الافغاني

(١) يعني الأشجار المندثرة والبترول

«وقد تغلبت الحياة على الظروف المتغايرة للماء والارض والهواء، ولاتزال ماضية في طريقها في شكل نبات وحيوان ومن الأميبا صاعداً الى السمك والحشرات وذوات الثدي وطيور الجو، أو نازلاً إلى الجرثومة والمكروب والبكتريا وكذا النباتات التي لاحصر لها، وسواء في شكل خلية او سمكة قرش او عنكبوت أو ديناصور، او إنسان، او زرع - فان الحياة تهيمن على العناصر، وترغمها على حل تركيباتها، والاتحاد من جديد على أساس صلات اخرى. . . .

اما المادة فانها لم تفعل قط اكثر مما تمليه قوانينها. فالذرات انما تطيع قواعد الالفة الكيموية وقوة الجاذبية وتأثيرات درجة الحرارة والدوافع الكهربية. والمادة ليست مبتكرة. اما الحياة فانها تأتي إلى الوجود بتصميمات وتكوينات جديدة، رائعة.

وبدون الحياة كان سطح الارض يصير صحراء شاسعة مجدبة، وفضاء من ماء غير نافع.

وبدون الحياة تكون المادة جامدة، ومتى تركتها الحياة عادت مجرد مادة. . . .

وأما ماهي الحياة، فذلك لم يدره إنسان بعد. فليس للحياة وزن ولا حجم.

... والطبيعة لم تخلق الحياة، فان الصخور التي حرقتها النار. والبحار الخالية من الملح. لم تتوافر فيها الشروط اللازمة. وهل احتضنت الحياة هذه الأرض والكرات الأرضية الاخرى في انتظار فرصة يزود فيها الكون بقوة الادراك؟. .

وقد أخذ الانسان يدرس حدود الذرة، ويقيس قوتها المخزونة غير ان الحياة نفسها خداعة، مثل الفضاء لماذا؟

والحياة منتظمة، على وتيرة واحدة، في بذل جهدها لاحياء المادة. .

والحياة هي المصدر الوحيد للوعي والشعور، وهي وحدها التي تجعلنا ندرك صنعة الله ويبهرنا جماله وإن كانت اعيننا لاتزال فوقها غشاوة.

ان الحياة ليست إلا اداة تخدم مقاصد الخالق سبحانه! وعلى هذا فالحياة باقية كمشيئته تعالى!»

يقول جـ . آرثر فندلاي:

«.. فما السبب في ان الشجرة المزهرة تحتفظ بشكلها واوراقها، على حين تتناثر شجرة اخرى من تلك التي نسميها «ميتة» وتتساقط اجزاؤها عند لمسها وتفتت في الثرى؟ لابد ان يكون هنالك ثمة شيء، وهو ما سميناه «حياة»، هو الذي يوجد في الكائن الحي وينعشه ويختفي من الكائن الميت، ولهذا الشيء قدرة على إكساب المادة الشكل واللون، فاذا ما اختفى ذهب باختفائه الشكل واللون، ويثوي الشيء الذي كان حياً فيما مضى الى الارض مكوناً جزءاً منها.

من ثم يتضح ان هناك شيئاً لايمكن ان نراه ولا ان نلمسه، ولكنه مع ذلك حقيقي وقادر وله خاصية تشكيل الصور من الارض غير الحية. اقول انه لابد ان يكون قادراً، لأنه يقوى على رفع المادة رغم قوة الجاذبية، ويستطيع الاحتفاظ بها في وضع معتدل، فاذا ترك المادة عادت لقوة الجاذبية سيطرتها، وتأثرت المادة بقوى الطبيعة كلها، فالانسان او الحيوان او النبات يمكنه ان يقف معتدلا عندما تسري فيه هذه القوة، فاذا ما وقف سريانها هوى هؤلاء جميعاً الى الارض. فالحياة قوة منظمة تقاوم في المادة ميلها الى الأختلال وعدم الانتظام.

الحياة قوة منظمة مفكرة تسري في المادة فتنظمها، وبدونها تكون المادة مختلة النظام. فهي اذن لايمكن ان تكون جزءاً من المادة الا اذا كان صانع الخزفة جزءاً من الصلصال الذي يصوغه اواني وعدا هذا فللحياة شخصية.

لكل كائن حي شخصية، لان كل كائن حي يختلف عن غيره من الكائنات الحية.

وبهذا التدليل يكون لهذه الحياة قوى تقصر عنها القوى المادية. فهي اقوى

من المادة، وهي تستطيع تنظيم المادة، وعلى ذلك فهي تفكر ولها فضلا على ذلك ذاتية. واذن نستطيع آمنين ان نخطو خطوة اخرى الى الامام فنقول ان العقل يؤثر في هذه القوة المنظمة، وان هذا الذي نسميه العقل لابد ان يكون قوة حية نشطة سائدة حاكمة في الكون. فالعقل يحكم الحياة والحياة تحكم المادة [1] »

- ٢١ -
السَوْق الطبيعي «الغرائز»

إن أمر «السوق الطبيعي» أو ما نسميه بـ «الغرائز» امر عجيب. إذ كيف تهتدي هذه الاحياء من اكبرها إلى اصغرها إلى ما يبقيها ويصلحها، وتأتي بالأعمال المحيرة المدهشة في سبيل حفظ كيانها، وبقاء نوعها، حتى تجد الحشرات الصغيرة وذوات الخلية الواحدة ممتعة بالعلم في اصول الدفاع عن نفسها، واقتناص فرائسها، واستخدام جميع الحيل وأعقد الشراك مما يعجز عنه اللبيب، ويحار له الذكي الأريب؟

انظر إلى الأحياء مجتمعة من الانسان إلى ذوات الخلية الواحدة، ترها مدفوعة بدافع خفي قوي لابقاء نوعها ودوام جنسها وذلك بغريزة الجنس حتى لاتهلك وتبيد.

من منحها هذا الدافع الخفي؟ ومن منحها هذه القوة الخارقة والسر العجيب وليس لها حيلة في وجوده ودفعه وإبقائه؟

من زود الأحياء بهذا الحب الكبير والحنان الزائد لصغارها لتربيتها والاشراف عليها والسعي لتغذيتها والقيام لحراستها والدفاع عنها دفاعاً مستميتاً؟

من جعل الحيوانات والطيور القوية منها والضعيفة، تذود عن افراخها وأبنائها وتفضل الموت دونها على أن تسلمها للأذى؟

من جعل نوعاً من الحمام يخلص لزوجه ويوفي بحقه وحسن عشرته حتى إذا مات زوجه وبان عنه عشيره حزن واغتم وامتنع عن الطعام وفاء لصاحبه

---

(١) على حافة العالم الاثيري ص ٤٣

حتى يلحق به؟

راقب النحل وراقب النمل تر في كيفية معيشته واساليب حياته وتنظيم امره ما يأخذ بلبك، من هداه إلى ذلك، ومن اجبره على هذا النوع من المعيشة؟ من علم العناكب هذه الحيل الماكرة لاصطياد فرائسه، وايقاعها في شباكه؟ ومن علمه صنع «معابر» من القش والعيدان والأوراق يربط بينها بخيوطه ويضع فيها مواد غذائه إذا أراد العبور ولم يستطع أن يحمل ماعنده بنفسه؟ من علمه صنع الجسور وعمل السلالم من لعابه؟

نظرة اخرى تر اعمالاً تقوم بها الغرائز تحار في أمرها: «فالقضاعة مثلا مع كونها أغبى الحيوانات تنشيء لنفسها في الماء بيتاً وطرقاً وسداداً وقد أخذ بعض الناس فراخها ونشأها في بعد عن آبائها وامهاتها وجعلها في قفص لئلا تحتاج إلى إنشاء البيوت ثم لما وضعها في الماء عادت إلى الانشاء فمن علمها ذلك، وهي لاتظهر قدرة في غير هذا الفعل؟»

يقول: أ. كريسي موريسون:

«... ان الطيور لها غريزة العودة إلى الموطن. فعصفور الهزار الذي عشش ببابك يهاجر جنوباً في الخريف. ولكنه يعود إلى عشه القديم في الربيع التالي. وفي شهر سبتمبر تطير اسراب من معظم طيورنا الى الجنوب، وقد تقطع في الغالب نحو الف ميل فوق عرض البحار، ولكنها لاتضل طريقها. والحمام الزاجل إذا تحير من جراء اصوات جديدة عليه في رحلة طويلة داخل قفص يحوم برهة ثم يقصد قدماً الى موطنه دون أن يضل.. والنحلة تجد خليتها مهما طمست الريح، في هبوبها على الاعشاب والاشجار كل دليل يرى..

وأنت إذا تركت حصانك العجوز وحده فانه يلزم الطريق مهما اشتدت ظلمة الليل. وهو يقدر ان يرى ولو في غير وضوح، ولكنه يلحظ اختلاف درجة الحرارة في الطريق وجانبيه، بعينين تأثرتا قليلا بالاشعة تحت الحمراء التي للطريق. والبومة تستطيع أن تبصر الفأر الدافيء اللطيف وهو يجري على العشب البارد مهما تكن ظلمة الليل..

إن إحدى العناكب «جمع عنكبوت» المائية تصنع لنفسها عشاً على شكل منطاد «بالون» من خيوط بيت العنكبوت وتعلقه بشيء تحت الماء. ثم تمسك ببراعة فقاعة هواء في شعر تحت جسمها، وتحملها إلى الماء ثم تطلقها تحت العش ثم تكرر هذه العملية حتى ينتفخ العش، وعندئذ تلد صغارها وتربيها، آمنة عليها من هبوب الهواء.

فهاهنا نجد طريقة النسج، بما يشمله من هندسة وتركيب وملاحة جوية...

وسمك «السلمون» الصغير يمضي سنوات في البحر، ثم يعود الى نهره الخاص به، والاكثر من ذلك انه يصعد جانب النهر الذي يصب عنده النهير الذي ولد فيه. وقد تكون قوانين الولاية الامريكية التي على أحد جانبي النهر صارمة، وقوانين الولاية التي على الجانب الآخر غير صارمة، ولكن هذه القوانين إنما تسري على السمك الذي يمكن أن يقال عنه أنه يخص جانباً دون آخر.. فما الذي يجعل السمك برجع إلى مكان مولده بهذا التحديد؟ ان سمكة «السلمون» التي تسبح في النهر صعداً، إذا نقلت إلى نهير آخر أدركت تواً أنه ليس جدولها، فهي لذلك تشق طريقها خلال النهر ثم تحيد ضد التيار قاصدة الى مصيرها.

وهناك لغز أصعب من ذلك، يتطلب الحل وهو الخاص بثعابين الماء التي تسلك عكس هذا المسلك، فأن تلك المخلوقات العجيبة متى اكتمل نموها، هاجرت من مختلف البرك والانهار، وإذا كانت في أوربا قطعت آلاف الاميال في المحيط، قاصدة كلها إلى الاعماق السحيقة جنوبي برمودا وهناك تبيض وتموت.

أما صغارها ـ تلك التي لاتملك وسيلة لتعرف بها أي شيء سوى أنها في مياه قفرة ـ فانها تعود أدراجها وتجد طريقها إلى الشاطىء الذي جاءت منه امهاتها، ومن ثم إلى كل نهر أو بحيرة أو بركة صغيرة، ولذا يظل كل جسم من الماء آهلاً بثعابين البحار.

لقد قاومت التيارات القوية وثبتت للامداد والعواصف، وغالبت الامواج المتلاطمة على كل شاطيء. وهي الأن يتاح لها النمو، حتى إذا اكتمل

حيث كانت بعد أن تتم الرحلة كلها نموها، دفعها قانون خفي إلى الرجوع

فمن أين ينشأ الحافز الذي يوجهها لذلك؟

لم يحدث قط أن صيد ثعبان ماء أمريكي في المياه الاوربية، أو صيد ثعبان ماء أوربي في المياه الامريكية. والطبيعة [1] تبطىء في إنماء ثعبان الماء الاوربي مدة سنة أو اكثر لتعوض من زيادة مسافة الرحلة التي يقطعها. ترى هل الذرات والهباءات إذا توحدت معاً في ثعبان ماء، يكون لها حاسة التوجيه، وقوة الارادة اللازمة للتنفيذ؟

وإذا حمل الريح فراشة انثى من خلال نافذة إلى علّية بيتك، فانها لا تلبث ان ترسل إشارة خفية، وقد يكون الذكر على مسافة بعيدة ولكنه يتلقى تلك الاشارة ويجاوبها مهما احدثت انت من رائحة بمعملك لتضليلهما. ترى هل لتلك المخلوقة الضئيلة محطة إذاعة، وهل لذكر الفراشة جهاز راديو عقلي فضلا عن السلك اللاقط للصوت (ايريال) اتراها تهز الاثير فهو يتلقى الاهتزاز؟

إن التلفون والراديو هما من العجائب الآلية، وهما يتيحان لنا الاتصال السريع، ولكنا مرتبطون في شأنهما بسلك ومكان.. وعلى ذلك لاتزال الفراشة متفوقة علينا من هذه الوجهة، وليس لنا إلا ان نحسدها على ذلك حتى تبتكر عقولنا راديو فرديا. وعندئذ نكتسب القدرة على «انتقال الفكر» من بعض الوجوه.»[1]

ويقول في (تطور العقل) قولا له علاقة وثيقة بما نحن بصدده «فالزنبور مثلا يصيد الجندب (النطاط) ويحفر حفرة في الأرض، ويخز الجندب في المكان المناسب تماماً حتى يفقد وعيه ولكنه يعيش كنوع من اللحم المحفوظ.. وانثى (الزنبور) تضع بيضاً في المكان المناسب بالضبط، ولعلها لاتدري أن صغارها حين تفقس يمكنها ان تتغذى دون أن تقتل الحشرة التي هي غذاؤها فيكون ذلك خطراً على وجودها. ولابد ان (الزنبور) قد فعل ذلك من البداية

(١) الاحسن أن يقال: وثعبان الماء الاوربي يبطىء في نموه سنة أو اكثر لتعوض زيادة مسافة الرحلة التي يقطعها. ع. ز

(١) العلم يدعو للايمان ١١٣ - ١٢٢

وكره دائماً، وإلا مابقيت زنابير على وجه الأرض.

والعلم لايجد تفسيراً لهذه الظاهرة الخفية، ولكنها مع ذلك لايمكن أن تنسب الى المصادفة! إن انثى (الزنبور) تغطي حفرة في الارض، وترحل فرحاً، ثم تموت. فلاهي ولا اسلافها قد فكرن في هذه العملية، ولاهي تعلم ماذا يحدث لصغارها. او ان هناك شيئاً يسمى صغاراً.. بل انها لاتدري انها عاشت وعملت لحفظ نوعها...

والنمل يأسر طوائف معينة منه ويسترقها. وبعض النمل حين يصنع اعشاشه، يقطع الاوراق مطابقة للحجم المطلوب، وبينما يضع بعض عملة النمل الاطراف في مكانها. تستخدم صغارها - التي وهي في الطور اليرقي تقدر ان تغزل الحرير - لحياكتها معاً. وربما حرم طفل النملة فرصة عمل شرنقة لنفسه ولكنه قد خدم الجماعة! فكيف يتاح لذرات المادة التي تتكون منها النملة. ان تقوم بهذه العمليات المعقدة؟

لاشك ان هناك خالقاً ارشدها إلى كل ذلك![1]»

ولا يقتصر عمل «السوق الطبيعي» على الغرائز فحجيرات البدن وافعالها المتنوعة التي تصدر منها «بدون اي نوع من انواع الشعور ولا تنطبق على أي صفة وماهية للضرورة الميكانيكية وهي تتبدل وتتنوع على حسب الحاجات اليومية»، تدل اكمل دلالة على ان هناك قوة عليا تهديها إلى وظائفها وتجعلها قادرة على العمل بما تناط به من واجبات.

وقال في (اصل الحياة) ص ٩٩ وما بعدها

«... ثم دعيت كل خلية لأن تؤدي مهمة وكلت اليها. وتدريجاً مع تكليفها تلك المهام أصبح في حيز الامكان أن يقوم المجموع بوجوه جديدة من النشاط... فهناك مجموعة منها صنعت غطاء وقائياً كثيفاً، كقشر الشجرة. واخرى كانت مشغولة بنقل الغذاء من مكان الى آخر في المخلوق الحي. واخيراً نجدها مشغولة بتكوين الخشب في الجذوع، أو بتكوين العظام والأصداف لتدعم جرمها المتجمع النامي...

---

(١) العلم يدعو للايمان ١٢٩ - ١٣٢

وقد يمكن السؤال عما إذا كان للخلايا فهم وادراك ام لا. وسواء اعتقدنا ان الطبيعة [1] قد زودت الخلايا بالغريزة ـ مهما تكن هذه ـ أو بقوة التفكير، ام لم نعتقد ذلك، فلا مناص لنا من الاعتراف بأن الخلايا ترغم على تغيير شكلها وطبيعتها كلها لكي تتمشى مع احتياجات الكائن الذي هو جزء منه. وكل خلية تنتج في اي مخلوق حي يجب ان تكيف نفسها لتكون جزءاً من اللحم! او ان تضحي نفسها كجزء من الجلد الذي لايلبث حتى يبلى. وعليها أن تضع ميناء الاسنان وأن تنتج السائل الشفاف في العين، او أن تدخل في تكوين الانف والاذن. ثم على كل خلية ان تكيف نفسها من حيث الشكل وكل خاصية اخرى لازمة لتأدية مهمتها...

إن مئات الآلات من الخلايا تبدو كأنها مدفوعة لأن تفعل الشيء الصواب في الوقت الصواب وفي المكان الصواب، والحق انها طائعة! والحياة تدفع إلى الامام، بانية مصلحة متوسعة. وخالقة ماهو حديث وما هو افضل بنشاط لايفتر ولا مثيل له في الاشياء الجامدة. فهل هذا ناشيء عن ادراك؟ ام عن غريزة؟ ام انه امر يحدث فحسب؟ يمكنك ان تجيب عن ذلك بنفسك.»

- ٢٢ -

البرهان الأخلاقي [2]

وجه نظرك وأدر بصرك الى اخلاق الانسان وخلاله، وعاداته وخصاله، تر طرفاً غير يسير مما نسميه بـ «الاخلاق» متفقاً عليه في جميع امم الأرض وشعوب الدنيا، وعلى مر الزمن وكر الدهور لم يغيرها مر الحوادث ولاتتابع الأيام.. فالأمانة والوفاء، والاخلاص والتفاني والتضحية، والصدق والعفة، والنزاهة والدماثة، والغيرة والكرامة، والذود عن الضعفاء، والانتصار

(١) الاصح ان يقال الخالق - ع.ز

(٢) تكلم فيه الغربيين الفيلسوف الالماني عمانوئيل كانت

للمظلومين، مما تقره الانسانية وتستحسنه البشرية وتدعو إليه وتنادي له، لم تغيرهـا الايام ولم يسقطها العرف ولم تستهجنها العادات بعكس الغدر والخيانة، والجبن والقعود عن نصرة الحق، والرشوة والاختلاس، والتزوير والسرقة، والوقاحة وفقدان الكرامة، وسقوط النفس والاعتداء مما تنفره البشرية وتحذر منه والسقوط فيه.

لقد تغيرت النظرات في كثير من الامور، واختلفت المقاييس والموازين في غير واحد من الشؤون، وتعددت العادات وتباينت في جميع الشعوب حتى أقر شعب ما كان ينكره، وأنكر ما كان يقره، واستهجن شعب عادات آخرين.

فعلام إذن هذا الثبوت في الخلال التي ذكرناها آنفاً؟ ومن أين جاء الاقرار بها على أنها امر مسلم بهفيجميع الشعوب وعلى طول الزمن، ولم ذاك؟

إن الانسان منذ نشأته وقبل أي من التجارب يعرف أن الاعتداء تجاوز، يحس به المعتدي والمعتدى عليه. وان السرقة سلب لحقوق الغير، يعرف ذلك السارق والمسروق منه، فمن غرس هذا الشعور في نفسه وجعله من مستلزمات اعتقاده؟

إن طرفاً من هذه لايقتصر الشعور به على الانسان وحده بل يتعداه الى الحيوان ايضاً. فالقط يعرف أن ما يستلبه خلسة منك لايرضيك فيهرب من وجهك بعكس ما تمنحه اياه انت بنفسك، والحيوانات والطيور تعرف حقها فيما تجمعه وتمتلكه فلا تسلم عشها وبيتها لكل معتد. فمن غرس هذا القانون الأخلاقي الواسع في الانسان، وغرس قسطاً منه في الحيوانات تعرف به حقها وتستنكر الاعتداءات الموجهة اليها؟

ان الطفل الذي لم يعرف العادات بعد ولم يطلع على العرف يحس أنه معتد حينما يستلب شيئاً من قرينه والآخر يعرف انه معتدى عليه. فمن الذي وضع الميزان في نفسه ـ ميزان الاخلاق؟

من حبب الواجب الثقيل الى الانسان يقوم به على ما يفوّت عليه مصلحة قريبة أو بعيدة؟

إن هناك من الغيارى من إذا رأى أحداً يعتدي على ضعيف أو عاجز يؤذيه

في نفسه او يسلبه حقه. تراه مندفعاً لنصرة هذا العاجز مناصباً للمعتدي العداء، معلناً له الخصومة ولو لم تكن له مصلحة في ذلك بل ولو أدى احياناً إلى الاضرار بنفسه وبمصلحته.

من علم الانسان أن يضحي بمصلحته بلا فائدة يرجوها؟

وهل هناك من يقول بعد كل ماتقدم: إن القيم الاخلاقية عادة استحسنها الناس، وقد عرفنا مدى تهاوي هذا القول وضعفه؟!

إن العادة - ياهؤلاء - ليست تعليلا. فالعادة لاتنشأ إلا ان يقوم بها فرد أو افراد يعملون بها مدة وبتكرار المشاهدة يألف المجتمع حدوثها وقد يعتادها.

فمن حبب إلى اولئك الافراد الأوائل ممن لم يشاهدوا أحداً يعمل بها لأن يقوموا بها ويضحوا أحياناً بمصالحهم في سبيلها؟

إن المجتمع لم يفرضها عليهم ولم يكن يعرفها فيستحسنها. فلم حدثت إذن؟ وأي دافع دفع اولئك الافراد إن لم يكن في الكون من يغرس القيم الأخلاقية في النفوس؟

وقد يسوغ لقصير نظر أن يزعم أنها «المصلحة الاجتماعية» فيكون قد أخذ بخناق نفسه، وذلك ما كنا نبغي. فلم كانت المصلحة الاجتماعية هي المفضلة عند الافراد على مصالحهم الخاصة؟

لم كانت المصلحة الاجتماعية لابد من اقرارها في الدنيا، ولم كانت «أمراً مفروغاً منه مقضياً بوقوعه» ملزماً للعمل فيه، «لماذا تعلل المصلحة الاجتماعية نشوء العادة ولاتحتاج هي إلى تعليل»، ثم من غرس حب المصلحة الاجتماعية عند أولئك الأفراد الأوائل وجعلها مثلاً أعلى يعملون له على مايفوت من مصالحهم أحياناً؟

ثم أي مصلحة اجتماعية - كان يرجوها - في أن يدفع ذلك الغيور الأذى عن ذلك العاجز الضعيف؟إنه حينما قام بذلك لم يكن ليفكر في مصلحة اجتماعية عليا، انها الرغبة في صد الاعتداء فحسب، أو كل الذين يدفعون الاعتداء عن الأفراد أو يوصلون الخير إليهم يحسون بمصلحة اجتماعية عليا أو يفكرون فيها؟

بل وأي مصلحة اجتماعية في أن يستدين شخص من آخر فيدينه أموالاً كثيرة بلا ورقة ولا شهود وبدون علم أحد من الناس؟ أهناك مصلحة اجتماعية في هذا الصنيع أم هي الرغبة في عمل الخير وحدها؟

وعلى كل فان كان هذا أو ذاك، فان الاخلاق لو لم تجد سنداً في النفس وأصلا في الفطرة فليس من الممكن أن يفرضها عليها أحد من الخارج فرضاً ويجبرها على ما لم تُهيأ له.

وبهذا عرفت أيضاً مدى تهافت القول القائل بأن الاخلاق نشأت نتيجة الكبت الواقع على الانسان من الخارج. كما عرفت به مدى تهافت قول «فرويد» زعيم هذا الرأي.

يقول الاستاذ محمد قطب:

«... **يصر فرويد على أن هذا الجانب لم ينشأ نشأة ذاتية**، وانما نشأ نتيجة الكبت الذي وقع على الطاقة الغريزية الميالة إلى الاعتداء. ونسلم بذلك توفيراً للوقت والجدل ولكن فرويد تهرب من هذا السؤال: من الذي فرض الكبت على البشرية؟

من الذي قال للانسان الاول: هذا عيب لايجوز ان يعمل[1]؟»

«من فرض الكبت على ذلك الرجل الدائن الذي ضربناه مثلاً: أهو الدين، والدين يأمر بكتابة الدين. أم المجتمع، والمجتمع لايرضى أن يضع الناس أموالهم في مثار الريبة؟ ولكن هؤلاء مخطئون في بديهية لايتطلب فهمها ولاتصديقها شيئاً من اعمال الفكر:

فلولا أن الطبيعة البشرية في ذاتها قابلة للتهذيب لما أمكن تهذيبها مهما كانت المحاولة المبذولة لذلك، ومهما كان عنف «السلطان» الذي يفرض هذا التهذيب.

بل إن بعض أنواع الحيوان ليمكن تهذيبه إلى حد يذهب بوحشيته الأصلية. أو بكثير منها على الأقل، فكيف إذن ينكر المنكرون على الانسان، وهو أرقى مخلوق على الأرض باعتراف الجميع، أن تتهذب طباعه ويسمو إلى

(١) الانسان بين المادية والاسلام ص ١٨٢

«الغيرية» وإلى «الانسانية» (٢)؟

ويقول في ص ٢٧٥ :

«فلنعد إلى اقذر صورة تخيلها للانسانية ذهن إنسان! الصورة التي رسمها فرويد جاهداً ليلوث بها كل جميل في مشاعر البشر!

لنعد إلى هذه الصورة ذاتها، لنجد الجواب على غير ما يزعم الهابطون والمنحلون وصغار النفوس.

قتلت الانسانية أباها الاول، ليستمتع الأولاد بأمهم في شهوة جنس دنس مسعور. ولكنهم ما كادوا يصنعون ذلك، ويرون أباهم جثة هامدة، حتى اعتراهم الندم على فعلتهم الآثمة.. ونأخذ الرجل من لسانه!

فمن اين أتى شعور الندم لهذه الحيوانات الهائجة التي تتصرف بدوافع الحيوان؟ من ذا الذي اوحى إليهم بأن عملهم هذا كان خطأ لا يجوز؟

إننا هنا امام اول شعور إنساني يفرق بين الانسان والحيوان، وذلك على فرض ان القصة كلها صحيحة، وفرويد نفسه لايملك على ذلك اي دليل. فهذا الندم على الجريمة يؤكد وجود الحاسة التي تفرق بين ما ينبغي وما لاينبغي أن يعمل. وبين ماهو خير وشرير. حاسة تقدر «قيماً» ذاتية للأعمال، بصرف النظر عن الدافع الغريزي الذي يدفع إليها.

هذه واحدة.

ثم نظر الأبناء فيما بينهم فوجدوا أن احداً منهم لن يفوز بأمه وحده. إلا إذا قتل الآخرين. وإذن فستنشب معركة عنيفة لاتؤدي إلى تحقيق المصلحة المنشودة، فاتفقوا بينهم على أن يتركوا أمهم لايمسها احد منهم، وينصرفوا راشدين متآخين، بدلا من ان يقتتلوا فينقلبوا خاسرين!

وهذه هي الثانية.

فهنا شعور إنساني آخر: شعور التآخي على مصلحة عامة، بدل الأنانية القاتلة والصراع المرذول.

(١) الانسان بين المادية والاسلام ص ١٠٧

ولايقف مانستخلصه من القصة عند هذا الحد. فهي تثبت كذلك مقدرة الانسان على «ضبط» نوازعه الفطرية في سبيل الخير العام، الذي يعود في نهاية الأمر على كل فرد بما فيه مصلحته الخاصة...

إن هذا الاعتراف الذي اقر به فرويد دون أن يدري، ليهدم كل ما أقامه بعد ذلك من نظريات ملوثة، وتصميمات خبيثة. فهو ينفي الجبرية النفسية إذ يقر بالارادة الضابطة التي امتنع بها الاولاد عن غشيان امهم. وينفي ان كل مشاعر الانسان غريزية، إذ يقرر إحساس الاولاد بالندم على ما صنعوه بدافع الغريزة. وينفي ان القيم الاخلاقية مفروضة على الانسان من قوة قاهرة خارج نفسه، فهذا الندم ذاته قيمة اخلاقية أحس بها الابناء تلقائياً لحظة انتهائهم من الجريمة.

فمن هذا الظلام الهابط الكريه يشاء الله ان يخرج بصيص من النور.»

«ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها. قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها»

«فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم».

- ٢٣ -

برهان المبادىء الذهنية

وهي مبادىء اولية موجودة عند كل إنسان يشترك بها بنو البشر قاطبة.

(كمبدأ الاستحالة) فاذا أخبرت إنساناً ما بأن شخصاً موجود ومعدوم، وحي وميت، في مكان واحد ووقت واحد أدرك استحالة هذا الخبر وأن هذا «تناقض». وإذا أخبرته بأن الظلام الدامس والضياء الوهاج لف مكاناً ما فهو مظلم مضيء في آن واحدة، أدرك تواً بأنك تسخر من عقله.

(وكمبدأ السببية) وهو علم الانسان بأنه لايحدث شيء قط إلا بسبب.

(وكالبديهيات) التي يسلم بها العقل تسليماً كاملاً من دون حاجة إلى برهان ككون الكل اكبر من جزئه وهو يساوي مجموع أجزائه. وان الاثنين اكثر من

الواحد وغيرها..

هذه المبادىء الأولى ونظائرها يجدها الانسان حاضرة في نفسه. فمن اوجدها فيه ان لم يكن هناك قسطاس للعلم يغرس فيه هذه المبادىء العامة المسلم بها عند جميع البشر، «إذ لو احتاج كل شيء إلى برهنة لاستحال العلم» كما قال ارسطو؟

وجميل ما يقوله احد العلماء «لو كانت المباديء الاولى متكونة على التدريج من تداعي التجارب المحسوسة وتراكمها لزم أن توجد في البهائم ايضاً لأنها تشاركنا في الاحساس بل هي أقوى فيه منا».

ثم إن الانسان حينما يريد أن يدرس أي علم يجد مبادئه حاضرة في نفسه، ويجد نفسه مسلماً بأولياته التي تلقي عليه ويتلقاها بالقبول.

فمن أوجد كل هذا في نفسه إن لم يكن هناك (عالم) يشعر بحاجة الانسان إلى العلوم فزوده بمبادئها وما يحتاج اليه [1] ؟!

- ٢٤ -
برهان الفطرة

إن الاقرار بالله تعالى حقيقة مغروسة في النفوس، وهي مستورة بنوازع شتى إلا انها تظهر على حقيقتها وتبدو على سجيتها متى تقطعت حبال النوازع المادية، ومتى مانزل بالانسان مكروه يعجز عن دفعه أو مرض لاحيلة له في الخلاص ولا أمل في النجاة منه، وانقطع أمله من الأطباء والمداوين. عندما لايرى منجداً حقيقياً ويغيب عنه كل ناصر فعند ذاك يظهر صوت الفطرة وتبدو النفس على حقيقتها.

«إن محاولات العقل البشري هي الساترة للمركوز في النفس في حالتنا الاعتيادية هذه، وبالوقوع في مأزق يشل قوى العقل، ومنطقه المادي الكسبي

(1) ثم من البديهيات وحسب مبدأ السببية: إن لكل حادث موجداً وهذا الكون حادث كما تراه فلابد له من موجد لا يحتاج وجوده الى شيء آخر وذاك هو الله الغني عما سواه ع.ز.

و (تبدأ) تعمل قوى النفس يظهر من حقائقها ما حجبه خطأ التعليم [1]»

عندئذ تنكشف الفطرة على سجيتها وتتحرك الغريزة بطبيعتها. فسبحان الذي أودع معرفته هذه النفوس «وإذا مس الانسان ضر دعا ربه منيباً إليه» «وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه».

- ٢٥ -

برهان الذات

إن هذا البرهان على بساطته حجة دامغة ودليل قاطع في اثبات وجود الله والروح معاً وإن كان إثباته للروح اظهر وأوضح.

وهو أن كل إنسان يعرف ذاته ويشعر بوجوده. وليس هناك من ينكر هذا إطلاقاً. فمن اشعره بوجوده وعرفه بذاته؟

إنه ليس في جسمه مايشعره بوجوده، ويعلمه بذاته. إنه من مفرق رأسه إلى اخمص قدميه عظام ولحم وعصب، وهذه كلها غافلة عن نفسها لاتدرك ذاتها ولاتشعر بوجودها. وقياساً على ذلك ينبغي أن يكون الانسان دوماً غافلا عن نفسه كالنائم، اجهزته كلها بكامل حياتها وكل عضو يؤدي وظيفته وهو غافل عن نفسه جملةً لا يعرف ذاته ولا يحس بنفسه.

من غرس في الانسان معرفته بنفسه وشعوره بذاته؟ كيف يعرف الانسان نفسه؟ إنه تقطع يداه ورجلاه، ويطير فكه وترمى اذنه، ومع ذلك فهو يبقى محافظاً على شعوره بذاته وعلى علمه بنفسه تماماً، مما يدل على أنه ليس هناك أي أثر لهذه كلها في هذا الشعور وتلك المعرفة، إن بقاءها وعدمها سيان لاتؤثر على ادراكه لوجوده وشعوره بنفسه.

إن مظنة المعرفة انها صادرة عن العقل، وإذا اثبتنا بطلان ذلك فقد اثبتنا ضرورة انه هناك من يعلمهُ بوجوده.

هل يعرف الدماغ نفسه؟ هل يعلم الدماغ عن نفسه أنه مادة بيضاء، مخلقة

---

(1) لماذا أنا مسلم ـ عبد الرحمن العيسوي

بمادة سنجابية، مكون من مقاطع وأخاديد تتباين وظائفها، وتتعدد اعمالها؟ وهل يعلم الدماغ أنه محفوظ في الجمجمة وظيفته التفكير والسيطرة على شؤون الجسم؟ هل يعرف الدماغ من حيث إنه مادة بيضاء ذلك؟ هل تحس هذه المادة البيضاء بأن عليها أن تحتاط وتسعى للمحافظة على الانسان من مكروه أو نازلة؟

إنها مادة غافلة عن نفسها. لا تعلم حتى بوجودها «والانسان المدرك لايشعر بوجود مخه إلا بواسطة التعليم والاستخبار» فمن ادرى الانسان إذن بنفسه؟

ان العقل من حيث إنه مادة بيضاء لايدري بنفسه ولا يشعر بوجوده ولا يعلم أقسامه ووظائفه ولا يعرف كل شيء عن ذاته ـ كما أسلفنا ـ وإذن فلابد أن يكون هناك من أعلم الانسان بوجوده وعرفه بذاته وهو الله سبحانه «وفي أنفسكم أفلا تبصرون»!

طائفة من ادلة المتكلمين (١)

وهي الزامات منطقية وعقلية جميلة لا مفر من الاذعان لها والتسليم بها..

ويجمل بي قبل أن ابدأ بذكر الأدلة ان اقدم لها مقدمة بسيطة لامكان فهمها.

يقول المتكلمون ونقول معهم، إن هناك: موجوداً ومعدوماً.

فالموجود إما واجب أو حادث.

فالواجب: هو الله وحده، ونحن نريد أن نثبت وجوب وجوده. وسمي بـ «الواجب» لأنه لايحتاج وجوده الى سبب. بل وجوده واجب وهو السبب في إيجاد الموجودات كلها، وهو علة العلل.

---

(١) في رأينا أن الأدلة القرآنية هي أقوى الأدلة وأوضحها في اثبات وجود الله تعالى وإفراده بالعبادة وهي التي أشار اليها القرآن الكريم. ولن تبلغ أدلة المتكلمين مبلغ الأدلة القرآنية التي قامت على الاستدلال بالمخلوق وعجيب صنعة الكائنات على الخالق وقدرته.

ومع هذا فنحن نسوق أدلة المتكلمين حتى يلم القارىء بأدلة من جميع أنواعها القرآنية والكلامية.

والحادث: وهو ماسوى الله تعالى من الموجودات. وسمي «حادثاً» لأنه «حدث» بعد أن لم يكن، وظهر ووجد لعلة أو جدته وسبب أحدثه هذا هو الموجود.

وأما المعدوم فهو إما أن يكون ممكناً أو مستحيلاً.

فالممكن: هو ما يمكن وجوده وحدوثه، إذا وجد السبب أو العلة التي ترجح وجوده. فان وجد «الممكن» فهو «حادث».

فكل مايأتي في المستقبل وهو الآن ليس موجوداً من انسان أو حيوان أو نبات أو جماد هو ممكن قبل أن يوجد، وحادث عندما يوجد. فالممكن إذا كانت له علة ترجح له وجوده فوجد، يكون هذا الموجود حادثاً. أي كان معدوماً فحدث.

والحادث هو ما وجد من الممكنات.

والمستحيل: وهو مالا يمكن وجوده اطلاقاً ولايتصور حدوثه أبداً. ككون الشيء موجوداً معدوماً في آن واحد فان هذا تناقض. وليس منه. المشي على الماء والطيران في الهواء.

الدليل الكياني (١)

نرى في العالم حادثات وتقلبات، حتى أن وجودنا نحن من جملة تلك الحادثات

ـ فهذه مقدمة مبنية على الاحساس والمشاهدة ـ.

ولابد لكل حادث علة، وكل حادث يكون ممكناً، لا مستحيلا ولا واجباً. فلو كان مستحيلا، لما حدث. ولو كان واجباً، لما سبقه العدم.

والممكن، مالا يقتضي أن يكون موجوداً ولا معدوماً، فالعدم والوجود سيان بالنسبة إليه.

فاذا وجد، وجد لعلة ترجحه لئلا يلزم الرجحان من غير مرجح، وهو محال

---

(١) ملخص من كتاب موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين للعلامة مصطفى صبري.

مستلزم لعدم تساوي الوجود والعدم فيما فرض تساويهما فيه. وعدم التساوي فيما فرض فيه التساوي، يستلزم خلاف المفروض المؤدي الى التناقض.

فاذا كان لكل حادث علة ، فاما ان تكون العلة ايضاً حادثة كالمعلول، او قديمة واجبة..

فعلى الشق الثاني يثبت المطلوب (اي يثبت وجود علة واجبة الوجود).

وعلى الشق الاول - اي ان تكون العلة ايضاً حادثة - يلزم ان تكون هذه العلة (المرجحة للوجود) مستندة الى علة اخرى (أوجدتها) لأنها كسابقتها (أي حادثة تحتاج لترجيح وجودها الى علة) وهكذا الى ان تنتهي الى علة العلل وإلا لزم التسلسل وهو محال.

وسيأتي بحث ذلك مفصلاً في ابطال التسلسل قال الدكتور «محمد عبدالله دراز »في قانون السببية:

«اما قانون السببية فيقرر ان شيئا (من الممكنات) «لا يحدث بنفسه من غير شيء»، لانه لا يحمل في طبيعته السبب الكافي لوجوده، «ولا يستقل باحداث شيء، لانه لايستطيع ان يمنح غيره شيئا لا يملكه هو. كما ان الصفر لا يتولد عنه عدد ايجابي. فلابد له في وجوده وفي تاثيره من سبب خارجي. وهذا السبب الخارجي ان لم يكن موجودا بنفسه احتاج الى غيره. فلا مفر من الانتهاء الى سبب ضروري الوجود يكون هو سبب الاسباب»

دليل الحدوث(١) (*)

«ان كل حادث فلحدوثه سبب .. والعالم حادث .. فيلزم منه ان له سببا».

---

(١) صنفه الامام الغزالي في عدد من مصنفاته

(*) آثرنا ان نختصر شرح هذا الدليل تجنباً لما قد يثار حوله من اسئلة. ولم نبق إلا الشرح المسلم به تسليماً كاملا. فمن اراد الشرح كاملا فليراجعه في مصنفات الامام الغزالي.

ونبدا بشرح الدليل فنقول:

(ان كل حادث له سبب) وهذا يعرف بالضرورة، وهو من اوليات العقل المسلم بها. وقد شرحنا ذلك في الدليل الكياني. فالحادث، هو ما كان معدوما ثم صار موجودا. والمعدوم، اما ان يكون مستحيلا او ممكنا .كما اسلفنا.

فالحادث كان قبل ان يوجد ممكنا وليس مستحيلا. لانه لو كان مستحيلا لما وجد. ونعني بالممكن ـ كما قلنا ـ ما يجوز ان يوجد ويجوز ان لا يوجد. فهو لم يكن موجودا لعدم وجود مرجح لوجوده حتى يتبدل العدم بالوجود. فان لم يوجد المرجح ـ اي السبب ـ لم يوجد الحادث.

والحاصل ان المعدوم المستمر العدم، لا يتبدل عدمه بالوجود ما لم يتحقق امر من الامور يرجح له جانب الوجود على استمرار العدم.

(وكل ما في العالم حادث) وُجد بعد ان كان معدوما كالبشر والنبات والحيوان فلابد اذن ان يكون هناك سبب رجح وجود هذه الموجودات ونقلها من حالة العدم الى حالة الوجود. وهذا السبب الموجد اما ان يفتقر وجوده الى غيره او لا يفتقر. فان كان الاول نظرنا الى ذلك الموجد فان افتقر الى موجد ايضا نظرنا الى موجده وهكذا حتى نصل الى سبب لا يفتقر وجوده الى ما سواه وبه يكون حدوث جميع الحوادث.

دليل الخلق او دليل المحرك[1]

وخلاصته: ان الموجودات لابد لها من موجد، لان كل موجود يتوقف وجوده على غيره وهكذا الى ان ينتهي التسلسل الى سبب اوجدها وليس كبعضها[2] وليس له سبب اوجده.

ويسمى ايضا هذا البرهان بدليل الحركة. ومعنى الحركة هنا عام لا

(١) استدل به الفيلسوف ارسطو.

(٢) إذ لو كان كبعضها لاحتاج إلى موجد مثلها.

يختص بشيء ومنها حركة الايجاد والخلق . . وخلاصته: ان كل متحرك لابد له من محرك، وهذا المحرك يستمد حركته من غيره الى ان ينتهي التسلسل الى محرك واحد لا تجوز عليه الحركة.

إبطال التسلسل[1]

ونعني بابطـال التسلســل إبطـال تسلســل العلل. فانـه من المنطق ومن المعقول ان تستند الموجودات الى علة واحدة اوجدتها، ليست محتاجة الى علة توجدها «اما اذا كان كل ما يستند بعضه الى بعض في الوجود محتاجا الى علة موجـدة، فالحـاجـة الى العلة لا تزال باقيـة غير مقضيـة. وتكون سلاسل المعلولات وعللهـا الممتـدة الى جانبهـا في المـاضي مستندة آحادها المتاخرة على آحادها المتقدمة ضربا من الخيال.»

١) ان اللانهاية[2] معناها عدم البداية اذن فكيف، ومن اين، ومتى ابتدأت سلسلة الوجود؟

٢) لو ثبت انه لا نهاية لسلسلة الوجود من الجانب القبلي لكان قد انقضى ما لانهاية له من الجانب القديم ووقع الفراغ منه وانتهى. فيلزم من ذلك ان يقال قد تناهى ما لا يتناهى، وانقضى ما لا ينقضي وهو محال اذ كيف يتناهى ما لا ينتهي؟

٣) لو لم تنته السلسلة لكان قبل كل حادث حوادث لا اول لها. ولو لم تنقض تلك الحوادث بجملتها لا تنتهي النوبة الى وجود الحادث الحاضر في الحال، وانقضاء ما لانهاية له محـال.

٤) لا وجود لحركات غير متناهية. اذ ان كل حركة من الحركات لا تحدث

(١) راجع ما كتبه شيخ الاسلام مصطفى صبري في كتابه «موقف العقل والعلم والعالم من رب العـالمين وعباده المرسلين» ومـا صنفـه الامـام الغزالي في رسالة الاقتصاد في الاعتقاد واحياء علوم الدين.

(٢) من الجانب القبلي

الا بعد انتهاء الحركة السابقة لها. فحدوثها مشروط بانتهاء ما قبلها. وكل حركة من القديم الى الابد لا تحدث الا بعد انقضاء سابقتها وانتهائها.

اذن فجميع الحركات مشروط حدوثها ومعلق بانتهاء ما قبلها وانقضائها. فهي لا توجد ان لم ينقض ما قبلها. وعلى هذا فستبقى الحركات معلقة لا تحدث طالما بقيت سلسلة التعليقات لا تنتهي. بل ستبقى موقوفة على ما قبلها، وما قبلها يبقى موقوفا على ما قبله، ولا تبدأ الحركات فعلا الا اذا انتهت سلسلة التعليقات وعلى هذا فان للحركة[1] بداية.

٥) ان الحوادث لابد ان تكون متناهية. اذ لو وجدت حوادث لامتناهية فهي اما ان يكون عددها زوجيا او فرديا، او لا زوجيا ولا فرديا، واما زوجيا وفرديا معا. لان كل عدد ينقسم الى قسمين متساويين اذا كان زوجيا، ولا ينقسم الى قسمين متساويين اذا كان فرديا. وكل عدد مركب من اضافات آحاد اليه. فهو اما ينقسم الى قسمين متساويين او لا ينقسم. وعدد الحوادث يضاف اليه في كل مرة حادث الى ما سبقه من الحوادث. فهو اما ينقسم الى قسمين متساويين او لا ينقسم، وعلى كل فهو اما زوجي او فردي.

وباطل ان يكون عدد الحوادث زوجيا، لان العدد الزوجي يصبح فرديا باضافة واحد إليه. فاذا انضاف اليه واحد صار فرديا. فكيف اذن يحتاج اللانهاية الى واحد وهو لا يحتاج الى شيء؟

كما انه باطل أن يكون عدد الحوادث فردياً. لأن الوتر يصبح زوجياً باضافه واحد إليه. وهو يبقى فردياً لأنه ينقصه ذلك الواحد. فكيف يعوز العدد الذي لايتناهى واحد؟

وعلى هذا، فعدد الحوادث اما أن يكون زوجياً او فردياً. واذا كان كذلك، فلابد أن يتناهى لأنه يحتاج الى واحد.

٦) نفرض أن هناك سلسلة متناهية، ولتكن من عشرة مثلا. فوجود العاشرة يستند الى التاسعة والتاسعة الى الثامنة وهكذا الى ان تصل سلسلة الاستناد إلى العلة الأولى وتنتهي فيها، ثم نرى أن وجودها لايستند الى علة، أي أنها غير

(١) معنى الحركة هنا عام.

وهكذا نستمر موجودة لأنها محتاجة الى الاستناد ولعدم كونها واجبة الوجود. فاذا لم توجد في الرجوع من الماضي الى الحال حتى تنتهي الى العاشرة. وهكذا نجد أن الاولى لم توجد الثانية، واذا لم توجد الثانية لم تكن الثالثة، بينما نحن فرضنا وجودها فهذا العاشرة غير موجودة لعدم استنادها إلى علة.

وزد من السلسلة ماشئت فستجد أنها إن لم تنتبه إلى علة موجدة واحدة خلف. فستجد أنها غير موجودة. وها نحن نرى سلسلة الوجود لاتحتاج إلى موجد، فلابد اذن أن تنتهي إلى علة لاتحتاج إلى موجد فالعلة حقيقة حاضرة المطلوبة إذن موجودة حتماً.

٧) نوضح هذا المقام بمثل: لو كتبنا على ورقة صفراً فلاشك في احتياج هذا الصفر لتكون له قيمة عددية إلى أن يكون بجانبه من اليسار رقم أقله واحد وأكثره تسعة. ولكنا لانكتب هذا الرقم، بل نكتب صفراً. فأن كتبنا في احدى المراحل من مرحلة المئات او الألوف الرقم المنتظر اكتسبت منه الاصفار المكتوبة قبله قيمتها العددية، فكأن هذا الرقم يفيض بالحياة على تلك الاصفار الميتة. اما اذا لم نكتب الرقم المقوّم للأصفار أبداً بل استمررنا في وضع صفر بعد صفر فلاتحصل لتلك الأصفار من زيادة اكثارها أي قيمة ويذهب كلها هباء، ولاينفعها في تقويمها أن تكون أعدادها غير متناهية. وكذلك شأن الحوادث. فكل حادث يعتمد في وجوده على علة توجده. فهو بمثابة الصفر لاتكون له قيمة ذاتية لاحتياجه الى اسناد يفيض عليه بالوجود. واسناد الحادث الى حادث آخر كاسناد الصفر الى الصفر. وما لم تنته الحادثات إلى علة واجبة لها قيمة ذاتية لايحتاج وجودها الى سبب، فليست هناك قيمة أو وجود حقيقي للحوادث، شأن الاصفار.

ولاينفع الحادثات ان تكون غير متناهية كما لاينفع الاصفار أن تكون كذلك.

فلابد إذن أن تكون هناك علة لاتحتاج إلى موجد، لها قيمة ذاتية (كالرقم) تفيض بالوجود على الكائنات كما يفيض الرقم بالحياة على الأصفار.

٨) لاوجود لسلسلة غير متناهية. إذ لو كانت موجودة، فأما أن تتكون من سلاسل متناهية فيلزم أن تكون هي أيضاً متناهية. لأن المؤلف من المتناهيات متناهٍ، ولا يتولد غير المتناهي إلى الأبد من انضمام المتناهي إلى المتناهي. وأما أن تكون من سلاسل غير متناهية، فيتوقف وجود الكل اللامتناهي على وجود الأجزاء اللامتناهية. ويلزم من تقدم وجود الموقوف عليه على وجود الموقوف، تقدم وجود اللامتناهي على نفسه. ولزوم تقدم الشيء على نفسه باطل.

٩) إنه ان لم يكن معلول من غير وجود علة، فلا معلول ولا علة ولا سلسلة مؤلفة من المعلولات. لأن وجود المعلول الاخير معلق بوجود علته، ووجود علته معلق بوجود علتها وهكذا إلى مانهاية له. فليس لأي جزء من أجزاء السلسلة وجود تقرر، بل وجود معلق بوجود ماقبله، ووجود ماقبله معلق بوجود ماقبله، بمعنى انه موجود إن كان ماقبله موجوداً، وما قبله موجود إن كان ماقبله موجوداً. من غير ان يكون وجود هذه الاشياء المتسلسلة إلا بعد انتهاء سلسلة التعليقات. وحيث لاتنتهي السلسلة في الجانب القبلي - الذي هو جانب المبدأ - الى ما له وجود منفرد غير محتاج إلى تعليقه بوجود غيره بل تستمر من تعليق الى تعليق، كانت السلسلة عبارة عن تعليقات مجردة، يتأخر الحكم بوجود معلقاتها إلى وصول الذهن إلى نهاية السلسلة التي لانهاية لها.

١٠) نقول: لو كان لزيد أم ولدته، كان زيد موجوداً. فوجوده، يتوقف على وجود أمه. ووجود امه يتوقف على وجود ام امه. وهكذا الى سلسلة امهات لاتنتهي. وكذلك آباء. فما هي موجودات بل موقوفات يتوقف الحكم بوجودها على وجود موقوفات مثلها. فهذا موجود إن وجد ماقبله.

وهكذا جميع أجزاء السلسلة لاوجود لها مقطوعاً، بل مشروطاً بوجود آخر قبله، وتحققه (في الواقع) يتوقف على انتهاء السلسلة المشروطة بعدم الانتهاء.

١١) إن غير المتناهي لزمه أن لايكون لزيادة شيء فيه، أو نقص شيء عنه أي تأثير في كميته. فلا يزداد بالزيادة ولاينقص بالنقص. ويتساوى الحالان عليه وهو تناقض لعدم كون الزيادة زيادة والنقص نقصاً.

١٢) لو وجدت أمور غير متناهية فعلاً لأخذنا شيئاً منها، ثم قارنا الباقي

بالمجموع المأخوذ منه. فان تساويا كان الجزء مساوياً للكل والناقص للزائد وكلاهما محال.

وإن نقص الباقي عن المجموع لزم تناهي الناقص وهو ظاهر وتناهي الزائد لكونه زائداً على الناقص بمقدار مأخوذ متناه. والزائد على المتناهي بمقدار متناه متناه.

بيان موجز عن ذات الله تعالى وصفاته[1] (*)

١) قِدمه : ان الله قديم لم يزل ، ازلي ليس لوجوده اول ، بل هو أول كل شيْ ومبدؤه ، وقبل كل ميت وحي . ليس له سبب أوجده ، ولا ذات خلقته ، غير مسبوق بعدم .

إذ لو كان حادثاً ولم يكن قديماً لافتقر الى سبب آخر محدث له، وكذلك السبب الاخر افتقر الى محدث ويتسلسل اما إلى غير نهاية وهو محال، واما ان ينتهي الى قديم لامحالة يقف عنده وهو الذي نطلبه.

٢) دوامه وابديته: ان صانع العالم مع كونه موجوداً لم يزل، فهو باق لايزال. لان ماثبت وجوبه وقدمه استحال عدمه، ولأنه لو انعدم لافتقر الى

---

(١) ذكرها الامام الغزالي بتوسع في رسالته « الاقتصاد في الاعتقاد » .

(*) ذات الله سبحانه وتعالى لا يشبهها شيْ (ليس كمثله شيْ وهو السميع البصير) . ولا نعرف كنه ذات الله تعالى لأن العقل عاجز عن معرفة كنه الذات الالهية « فكل ما خطر ببالك فالله على خلاف ذلك » . وعجزنا عن معرفة كنه الذات لايتناقض ابداً مع إيماننا بوجود الذات لأن الايمان بوجود الشيْ لا يتوقف على معرفة كنهه ، فالصبي يوقن بوجود « الراديو » لأنه يراه ولكن لا يعرف كنهه ، والعالم يوقن بوجود الكهرباء ولا يعرف كنهها والانسان يوقن بوجود روحه ولا يعرف كنهها . فاذا كان معرفة كنه الاشياء الحادثة خارج حدود العقل البشري فمعرفة كنه ذات الله أولى ان تكون خارج قدرة العقل البشري، فذات الله تعالى لا تشبه الذوات لأن المشابهة تقع بين المخلوقات لا بين الخالق والمخلوق، وكما ان ذاته تعالى لا يشبهها شيء فصفاته لا يشبهها شيء وكذا افعاله ولهذا يقال: ان الله تعالى لا يشبهه شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في افعاله.

سبب. إذ كما افتقر تبدل العدم بالوجود الى مرجح على العدم، فكذلك يفتقر تبدل الوجود بالعدم الى مرجح للعدم على الوجود وباطل ان يقال انه ينعدم لانعدام شرط وجوده. فأن الشرط ان كان حادثاً، استحال بأن يكون وجود القديم مشروطاً بحادث، وان كان قديماً فهو واجب وجوده كذلك فلا يتصور عدمه وليس هناك من مرجح لايحتاج الى غيره إلا الله تعالى.

٣) قدرته: إن محدث العالم وصانع الكون قادر. لأن العالم فعل محكم متقن مشتمل على انواع العجائب والآيات، وذلك يدل على القدرة. إذ كل فعل محكم، صادرٌ من فاعل قادر، والعالم فعل محكم، فهو اذن صادر من فاعل قادر.

وهذا الاصل مدرك بضرورة العقل وبداهة الحس إذ لو لم يكن العالم صادراً من فاعل قادر لكان قديماً مع الذات الاهلية. ولما كان العالم حادثاً ليس بقديم، دل على انه مبدعه قادر وقد احدثه بقدرته.

... أذ أن الفعل الصادر من محدث العالم لايخلو اما ان يصدر عنه لذاته، اي ان طبيعة وجوده تحدثه بغير ارادة منه، كما ان ضوء الشمس يصدر عنها طبيعياً وبلا ارادة منها، فحيثما وجدت الشمس كان الضوء معها، أو

← ونحن نؤمن بأن الله تعالى له الكمال المطلق اذ يستحيل عليه النقص ويستحيل عليه صفات العجز. ولما كان الله سبحانه وتعالى اعرف بصفاته من خلقه كان واجباً على العقل السليم ان لا يصف ربه الا بما وصف به نفسه على أن يعرف ان صفاته تعالى لا تشبهها صفات المخلوقين بل هي صفات تليق بذاته تعالى فمن صفاته انه هو الاول الدائم الحي القيوم العليم القدير السميع البصير الخالق المحيي المميت .. الى آخر الصفات التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم، ولا يجوز لنا ان نحرف معاني الصفات بحجة التأويل وتنزيه الله تعالى فنحن نؤمن بانتفاء المشابهة بينه تعالى وبين ما سواه وان اثبات هذه الصفات للرب عز وجل انما يكون على مايلق به وهو أعرف من غيره بما يليق به. ولو كان فيما وصف به نفسه اي نقص له لما وصف به نفسه، ولو كان ظاهر ما وصف به نفسه يوهم التنقيص به تعالى لما ذكره في القرآن الكريم .ع.ز

يصدر الفعل عنه لصفة زائدة يتحكم فيها وهي صفة القدرة.

وباطل ان يقال صدر عنه لذاته. اذ لو كان كذلك، لكان الفعل قديماً مع الذات. فدل على انه صدر لزائد على ذاته. والصفة الزائدة هي صفة القدرة التي كان العالم بها حادثاً.

٤) العلم: إن هذا العالم متقن الصنع محكم الفعل وذلك يدل على قدرة الصانع كما سبق بيانه، ومن كان قادراً، وكان عمله متقناً وفعله محكماً مرتباً كان عالماً بالضرورة. فان من رأى سطوراً منظومة وخطاً جميلا متسقاً يصدر من كاتب، ثم استراب في كونه عالماً بصنعه الكتابة كان ضالاً في استرابته فدل على انه سبحانه قادر عالم. ومن علم غيره فهو بذاته وصفاته اعلم. إذ يجب ضرورة أن يكون عالماً بذاته وصفاته من كان عالماً بغيره.

وإذن فقد ثبت أنه عالم بغيره وذاته.

٥) الحياة: نقول ان الله سبحانه حي، وذلك معلوم بالضرورة فان كونه تعالى عالماً قادراً مما يدل على أنه حي قطعاً. ومالحي إلا مايشعر بنفسه ويعلم ذاته وغيره. والله سبحانه عالم بجميع المعلومات قادر على كل شيء فكيف لايكون حياً؟

تعالى الله عما يقولون علواً كبيرا.

التدين فطرة[1]

إن الانسان مجمع غرائز عدة كغريزة الجنس والغضب والخوف وغيرها.

---

(١) ان الانسان مفطور على الاقرار بوجود الله تعالى والاعتراف بربوبيته والالتجاء إليه، الا ان هذه الفطرة التي خلقه الله عليها قد يصيبها المسخ وتسترها المكابرة ويحجبها الجحود (وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم). وحتى الكفار كانوا يعتقدون بوجود الله وربوبيته (ولئن سألتهم من خلق السماوات والارض ليقولن الله) الا ان الانسان قد ـ

وكل غريزة تتحرك وتثور بدوافع مخصوصة. وهو في الحالة الاعتيادية لايظهر عليه أي اثر للغريزة حتى إذا وجدت الاسباب لاثارتها وحركتها تتحرك او تثور فتراه غاضباً او خائفاً او مدافعاً عن ذاته.

إن الانسان الهادىء الساكن الذي لايبدو أن في باطنه شيئاً مخفيّاً اذا ادنيت منه صورة حسنة ومنظراً جميلاً يستهويه ترى غريزته الجنسية التي كانت مستورة عنك وليس هناك اي علامة على وجودها تتحرك ويتبدى اثرها عليه.

واذا نلت منه بكلمة احس ان فيها اي اهانة ترى غريزة الغضب التي لم يكن لها اي اثر عليه تحركت فثارت اعصابه وتغير مظهره. . إنهما غريزتان موجودتان ولكنهما مستورتان ظهرتا وتحركتا عندما وجد الدافع لهما على الحركة. وكذلك شأن باقي الغرائز.

فمتى تتحرك غريزة التدين، ومتى تظهر؟

إنه متى مانزل بالانسان مكروه يعجز عن دفعه. أو مرض لاحيلة له في الخلاص ولا أمل في النجّاة منه وانقطع رجاؤه من الاطباء والمداوين، عندما لايرى منجداً حقيقياً فعند ذلك يظهر صوت الفطرة وتوحيدها. ويقرر القرآن الكريم هذه الحقيقة فيثبت فطرة التدين عند بني الانسان فيقول:

«هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم احيط

← **يتمادى في الضلالة ويتبع هواه وتأسره مكابرة الحق فيختفي نور الفطرة ويخفت صوتها حتى لا يكاد يبين او يظهر فتكون فطرته كالجمرة التي عليها اكوام من الرماد فاذا ما اصاب مثل هذا الانسان ضر أو حلت به نائبة وتقطعت به الاسباب ولم يجد له ملجأ ولا منجى وضاقت به السبيل ويئس من حوله وقوته وقطع تلفته الى من يظن** فيهم النصرة والعون زالت تلك الاكوام من الرماد التي حجبت نور الفطرة واخفتت صوتها فاذا بلسانه ينطق يارب يارب (واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا اياه). ع. ز

بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين».
كما يقول سبحانه في آية اخرى مدللاً على هذه الحقيقة:
«واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعوه إلا اياه».
ولا يقتصر هذا الامر على المؤمنين وإنما هو عام بين بني الانسان. فحتى الانسان الملحد إذا وقع في مأزق حرج ينسيه منطقه الكسبي يظهر في نفسه حقيقة المستور.

فهذا «ستالين» مثلاً حين انهكه المرض وانقطع أمله في الشفاء وأعلن الاطباء عجزهم عن مداواته فعند ذاك تحركت غريزته وانكشفت فطرته على سجيتها فبدأ يطلب من العلماء الروحانيين في العالم أن يدعوا له بالشفاء «وإذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه او قاعداً او قائماً».

وليس أدل على عمق غريزة التدين من انه لايكاد يخلو مجتمع من المجتمعات من الدين. فانك أنىّ نظرت في اعماق التاريخ وفي بطون الماضي السحيق وتفحصت اي مجتمع من المجتمعات ترطابع التدين واضحاً على افراده وجماعاته، أياً كان نوع الدين.

ان هذا الامر وحده ليدل دلالة واضحة على غريزة التدين وعمقها. بل الامر ابعد من ذلك كما يقرر الفيلسوف «ارنست رينان» في كتابه «تاريخ الاديان» إذ يقول:

«من الممكن ان يضمحل ويتلاشى كل شيء نحبه وكل شيء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها. ومن الممكن ان تبطل حرية استعمال القوة العقلية والصناعة. ولكن يستحيل ان ينمحي التدين او يتلاشى. بل سيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يود ان يحصر الفكر الانساني في المضائق الدنيئة للحياة الارضية.»

حقاً! قد يأتي زمن - وقد اتى - على مجتمع تنحدر فيه الحضارة الى الدركات السفلى وتبطل الحرية ويسود الجهل والفوضى ويركد العلم وتبطل الصناعات ويضعف استعمال القوة العقلية، لكنه ليس من الممكن ان ينمحي التدين او يتلاشى ويضمحل. إنها لدلالة كبيرة على عمق فطرة التدين

عند بني الانسان.

يقول هنري برجسون: «لقد وجدت وتوجد جماعات انسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة».

ويقول سالومون رنياك: «ليس امام الديانات مستقبل غير محدود فحسب، بل لنا ان نكون على يقين من انه سيبقى شيء منها ابداً، ذلك لأنه سيبقى في الكون دائماً اسرار ومجاهيل، ولأن العلم لن يحقق ابداً مهمته على وجه الكمال».

ويقول الدكتور (ماكس نور دوه) عن الشعور الديني:

«هذا الاحساس اصيل يجده الانسان غير المتمدين، كما يجده اعلى الناس تفكيراً، وأعظمهم حدساً.. وستبقى الديانات مابقيت الانسانية، وستتطور بتطورها، وستتجاوب دائماً مع درجة الثقافة العقلية التي تبلغها الجماعة».

وكتب بارتيلمي سانت هيلير: «هذا اللغز العظيم الذي يستحث عقولنا: ما العالم؟ ما الانسان؟ من اين جاءا؟ من صنعهما؟ من يدبرهما؟ماهدفهما؟كيف بدءا؟ كيف ينتهيان؟ ما الحياة؟ ما الموت؟ ما القانون الذي يجب ان يقود عقولنا في اثناء عبورنا في هذه الدنيا؟ اي مستقبل ينتظرنا بعد هذه الحياة؟.. هل يوجد شيء بعد هذه الحياة العابرة؟ وما علاقتنا بهذا الخلود..؟ هذه الاسئلة.. لاتوجد أمة، ولاشعب، ولا مجتمع، الا وضع لها حلولاً جيدة أو رديئة، مقبولة او سخيفة، ثابتة او متحولة..»

ويقول معجم(لاروس) للقرن العشرين: «ان الغريزة الدينية: مشتركة بين كل الاجناس البشرية، حتى اشدها همجية، وأقربها الى الحياة الحيوانية... وان الاهتمام بالمعنى الالهي وبما فوق الطبيعة هو احدى النزعات العالمية الخالدة للانسانية».

وقال الدكتور هنري لنك في كتابه (الطريق الى السعادة):

«ويبدو سواء من الوجهة النفسية او من اي وجهة اخرى يستسيغها العقل، انّ الانسان خلق وهو مجبول على الاعتقاد في عقيدة ما، والتصرف حسبما

يؤمن به. فالالحاد مرض عقلي، والايمان بالخرافات افضل من عدم الايمان بشيء.»

إنها غريزة الانسان وفطرة الله التي فطر الناس عليها. فَمن يستطيع ان يمحو الغريزة ويبدل الفطرة؟!

من الممكن أن تأتي جماعة من المستبدين تسيطر على الوضع وتحسب انها استطاعت ان تطمس على هذا الجانب المشرق من الفطرة وتغتر بذلك، ولكن الى حين، والى امد مهما طال فهو قصير.

المبحث الثاني

الايمان باليوم الآخر

تعتبر هذه العقيدة امتداداً لسابقتها - عقيدة الايمان بالله - والاكثرية من الناس تكتفي باثبات وجود الله لاقرار هذه العقيدة. لأنه متى ثبت وجود الله، اقتضى أن يكون هناك يوم آخر ينتصف فيه المظلومون من الظالمين ويحاسب كل إنسان على عمله. فانه من غير المعقول أن يذهب الظالم ناجياً مما اقترفت يداه وأن تذهب حقوق المظلومين هدراً، وليس في هذه الدنيا من أدان اولئك وجازاهم وأرجع لهؤلاء حقوقهم. إنه من غير المعقول ان تنتهك الحرمات وتداس الكرامات ويجني المجرمون ويعبث العابثون، وتباد جماعات بلا إثم اقترفوه وتهلك أقوام بسبب ظالم باغ وبعد ذلك كله لايرجع الى هؤلاء حقهم ولا يلقى اولئك جزاءهم. ومع ذلك فان هناك صنفاً آخر من الناس أشد إنكاراً لقضية البعث والنشور منه لحقيقة الله سبحانه. ويعتبرها بدعاً بعد أن يكون الناس رهائن قبورهم أن ينهضوا. وهذا الصنف ليست بالحديثة افكاره وانما هي افكار ناس قدامى وقد كان كفار قريش من هذا الصنف.

«وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر» وبلغ العجب من أمر البعث أن يقولوا لبعضهم «هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفي خلق جديد؟»

وكان نتيجة لهذا العجب والاستغراب أن يأتي أحدهم وبيده عظم بال فيفتته أمام رسول الله (ﷺ) ويذريه في الهواء قائلا: أتزعم ان ربك يستطيع أن يحيي هذه العظام البالية؟ فيجيئه الرد من السماء ساخراً من هذا الجاحد الجاهل: «وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم».

وبلغ الانكار من هؤلاء مبلغاً لايتصوره أحد. وجاؤا بحجة! يدعمون بها انكارهم. فما عسى أن تكون هذه الحجة؟ اسمعها يحكيها الله سبحانه: «وما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا ان كنتم صادقين» لقد سماها الله

(حجة) تجوزاً أو باعتبار قائليها طرفاً آخر يدلي برأيه أياً كان هذا الرأي.

يريد هؤلاء أن يقوم الناس من قبورهم يخبرونهم عن الآخرة وعن حقيقة النشور.

ها! ها! ملء فمي من هذه العقول الكليلة والقلوب العمي! ثم.. بلغت هذه الحجة! مجتمعنا الحاضر واذا بهم يرددونها شأن اولئك الأوائل: ائتونا بآبائنا.. فهل تصدّق؟!

لقد كنت أظن ان البشر مهما انحطت مداركه وبلغت جهالته لايبلغ هذا المبلغ من السخف - أنه مادمنا لم نعد نرى آباءنا الأموات فليس اذن هناك يوم آخر.

إن الحياة الاخرى - ياهؤلاء - بمثابة ولادة جديدة، وطور آخر من اطوار الحياة، فكما ان الطفل الذي لايزال جنيناً في الرحم يشعر بان محيطه الضيق هو العالم الواسع، ولايصدق بان هناك عالماً أوسع من عالمه يختلف عنه في كل شيء، وفي كل مظهر من مظاهره، وحتى في اسلوب حياته ومعيشته، كذلك هؤلاء الناس، لايصدقون بأن هناك عالماً اوسع من هذا العالم يختلف عنه في كل مظهر من مظاهره. وما كان حجتهم إلا حجة الجنين، أنه مادام لم يرجع أحد من الناس الى بطن امه مرة ثانية ويخبر الجنين بأن العالم الذي يستقبله هو خير من عالمه الذي يعيش فيه، وأن الخير كل الخير في ان يخرج الى ذلك العالم، مادام لم يكن ذاك، فلينكر الجنين إذن وجود العالم الكبير، وليتشاءم من خروجه من بطن امه وليستقبل الدنيا بالبكاء.. وكذلك هم، مادام انه لم يعد أحد من قبره الى الدنيا يخبرهم بحقيقة الأمر فلينكروا إذن كما ينكر الجنين!

إن الحشرة التي تعودت الحياة الدودية في الأرض تسبت وتلف على نفسها شرنقة أشبه ماتكون بالقبر ثم تخرج مكسوة بالاجنحة وقد صارت حياتها أرفع مما كانت عليه، وعالمها أوسع وقواها اكبر. إلا انه مالم تعد حشرة طائرة إلى حيث كانت عليه قبل الشرنقة وتخبر اخواتها اللاتي لم يسبتن بعد بأن الخيركل الخير في أن يعشن في محيط الشرنقة الضيق ليتمكنّ من المعيشة في عالم

اوسع وحياة أهنأ فلينكرن حقيقة هذا الأمر.

هذا أيها الناس انكار الاجنة لا إنكار الناس الكبار، وإنكار الحشرات لا إنكار العقلاء، من البشر.. فهل ترضون أن تكونوا كذلك؟

لقد جعل الله مثلاً مضروباً للموت والنشور يستقبله الناس كل يوم حتى أصبح من مألوفاتهم ومن لوازم حياتهم اليومية الرتيبة. ذلكم هو النوم.. يفقد الناس فيه شعورهم ويجهلون ذواتهم حتى أنهم لايبصرون بأعينهم ولا يسمعون بآذانهم.. حياة أشبه ماتكون بالموت.. حتى إذا أصبح الصباح رايتهم وقد أرجع اليهم شعورهم، وعادت اليهم معرفتهم بأنفسهم، وقاموا من مضاجعهم كما يقوم الموتى من قبورهم.. أين كان الشعور، وأين كانت الذوات، ومن أرجعها اليهم؟ من أرجع اليهم شعورهم وعرفهم بذواتهم وهم لايد لهم في ذلك؟

كذلك لعمري شأن الموت. ولقد صدق رسول الله (ﷺ) حين قال «النوم أخو الموت..» وحين قال أيضاً:

«والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتجزون بما كنتم تعملون، وإنها لجنة ابدا أو لنار ابدا». أو كما قال.

وقد اوضح الله سبحانه في محكم آياته هذا الامر قائلاً:

«الله يتوفى الا نفس حين موتها والتي لم تمت في منامها، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى اجل مسمى».

إلا اننا مع ذلك سنقرر أدلتنا تقريراً موضوعياً ونسير في البحث كما سرنا في تقرير الحقيقة السابقة وسنتبع في اثباتها طريقين:

١ ـ اثبات وجود الروح.

٢ ـ خلودها والحياة الاخرى أو مايسمى بالحياة بعد الموت.

ولن نكتفي لاثبات وجود الروح بالأدلة العقلية، بل سنُشبع مانقول أدلة شرعية ماوسعنا ذاك ليكون كلامنا أقرب الى الحق والصدق منه الى الحدس والظن ويكون أقرب الى العقيدة منه الى الرأي واتباع الهوى. وليرتاح له المؤمن وغيره وتطمئن اليه القلوب وتسكن له الافئدة. ونسأله سبحانه أن يجنبنا مواطن الزلل انه سميع مجيب.

الأصل الأول

اثبات وجود الروح

قبل الكلام عن اثبات وجود الروح في الانسان يجدر بنا الكلام في اثبات وجود عالم غير عالمنا المادي هذا ولا يخضع لقوانينه ومقاييسه ويمكن تسميته بالعالم الروحي مثلاً. فاذا ثبت مثل هذا العالم كان الايمان بوجود الروح في الانسان امراً سهلا وميسوراً.

اثبات وجود العالم الروحي

خوارق العادات

هذه الاعمال المدهشة المحيرة للعقل كيف يعللها الماديون؟

رجل يتعرى من ملابسه امام ملأ من الناس الا من لباس يستر عورته ويدخل حربة غليظة في بطنه حتى تخرج من ظهره ويتقدم من شاء لاخراجها بيده. وقد شاهدنا ذلك مراراً حتى صار عندنا من المألوف. وآخر يضرب رأسه في الحائط حتى ينهدم ويحدث فجوة فيه فيضطر صاحب الدار لاصلاحه. وعندنا من يدخل السيف في بطنه حتى يخرج من ظهره ولايصاب كل هؤلاء بأدنى اذى.

وقد قدمت هيئة من كبار الاطباء لمشاهدة هذه الغرائب في بلدنا فكان مما حدث ان ادخل احد المريدين (حربة) في صفحة عنقه حتى خرجت من الجانب الآخر. وما إن بدأ الدكتور الانكليزي الجنسية يتفحصها بيده ويحرك الحربة يميناً وشمالاً حتى فجأته الحقيقة التي لامرية فيها ووقع مغشياً عليه. وهذه الحادثة مشهورة عندنا يعرفها كل احد.

وهنـــاك من يمشي على النـــار وقــد ذكــرت هذا النبأ كثيــر من الصحف والمجلات. وقد دعي احد هؤلاء إلى لندن من قبل لجنة طبية وفحصت قدمه ادق الفحوص وغسلت بأنواع المحاليل وأوقدت له نار من فحم القير فدخلها رابط الجأش ومشى فيها ذاهباً آيباً.

وقد ذكرت حادثة شبيهة بسا بقتها عن جماعة اسلامية دعيت الى باريس من قبل الاستاذ الطبيعي الكبير (الفرد رسل ولاس) لاظهار بعض الخوارق التي اشتهـرت عنهم، على ان يخضعـوا في عملهم لكـل ضروب التمحيص التي تفرض عليهم، فقبلوا «ورأى الباحثون اعضاء المؤتمر ان يستعينوا بواحد من الـذين لهم خاصيـة رؤيـة السيـالات الـروحيـة بأبصـارهم وهم أيقـاظ، ليـروا مايحدث من شأنها في اثناء ظهور هذه الخوارق وهذه خاصية معروفة توجد لدىٰ بعض النـــاس بدون كسب فيــرون بواسطتهـا الاشعـاعـات الجسديـة، والسيـالات الـروحيـة بدون اقـل مشقـة. فكـان ما اظهـره هؤلاء محيراً لعقول اعضاء المؤتمر، لعدم استطاعتهم تعليله بالعلل الطبيعية ـ وقد قاموا بخوارق شبيهة بالتي ذكرناها آنفاً تقريباً ـ وقد سأل المؤتمر الرجل الذي استعانوا به على رؤيـة السيـالات الـروحيـة عمـا شاهده اثناء التجارب. فأخبرهم بأنه رأى عند جلوس الثلاثة هؤلاء ناقوساً كبيراً من قوى روحانية شملهم في جوفه. وفصلهم عن الجماعة المحيطة بهم. قال الرجل «وكان ذلك الناقوس من قمته يشبه البلور الناصع الشفافية ويأخذ في العتامة شيئاً فشيئاً، كلما قرب من الارض وأن الناقوس كان شاملاً لهم مدة أن كانوا في حالة سكون وخشوع. ولكن لما سطع دخـان البخـور تحـول هذا النـاقـوس الى قفص يبلغ ارتفاعه ثلاثة امتار وعرضه متراً ونصف متر. وطوله اربعة امتار. وكان هذا القفص يفصلهم عن المحيطين بهم[1]»

وذكـر عن رجـال التيبت مالا يكـاد يصـدق. فقـد ذكـر «الكسندر كانن» في رسالته (في عالم الطيف) ص ٥٦:

(١) لماذا انا مسلم ـ عبد الرحمن العيسوي

«ومن أعجب مشاهداتي رأيتهم يبددون الغيوم من السماء بينما الأنواء الجوية تنبيء عكس ذلك. ويوجد في بلاد التيبت شيوخ يدخلون في حالة غيبوبة ثم يصعدون إلى الجو ويبددون الغيوم. ولقد قام بهذا العمل امرأتان كانت احداهما روسية والأخرى شرقية وقد قاما بعمليهما بدون علم احداهما بالأخرى».

وهناك من الخوارق على غير هذا الشأن، فقد ذكر الاستاذ البرت دروث الفرنسي في كتابه (استخراج الحس الانساني) نقلاً عن الاستاذ لومبروزو العالم الايطالي الشهير واضع علم النفس الجنائي انه كان شديد الانكار للمذهب الروحاني. واقترح عليه ان يمحص حوادث تحدث بحضرة وسيطة خارقة للعادة حقاً، هي مدام «أوزابيا» فقبل الاقتراح مرتاحاً الى ان هذا التمحيص سيكون بمساعدة رجال ممتازين في الأمراض العقلية وهم تامبوريني وفيرجيليو ونيانكي وفيزيوني وقد كادوا يكونون مثله في انكار صحة المسألة التي هم بصددها. واتخذوا قبل البدء في التجارب اشد مايستطاع من التحوطات.. ويستمر قائلا:

«وقد ابطلت أنا والدكتور تامبوريني حركة رجلي الوسيطة ويديها بواسطة ايدينا وارجلنا، وبدأنا تجاربنا واتممناها تحت ضوء مصباح مسرج، وكان احدنا يشعل بغتة من آن لآخر عوداً من الثقاب لمباغتة التدليس.

أما الحوادث التي شاهدناها والوسيطة على تلك الحالة فكانت عجيبة اذ استطعنا ان نشاهد في الضوء الساطع، ارتفاع المنضدة وارتفاع كرسينا ايضاً بمقدار يطلب من القوة لانزالها مايعادل ٥ ـ ٦ كيلو جرامات. . وبناء على طلب احد الحاضرين وهو المسيو جيوفلي الذي كان يعرف الوسيطة منذ زمن بعيد، حدثت طرقات في باطن المنضدة، وهذه الطرقات كانت تجيب في الوقت نفسه على المسائل التي توجه الى القوة التي تحدثها، متعلقة بمعرفة اعمار الاشخاص الموجودين وما سيحدث وحدث من الامور. وكانت هذه الطرقات تحدث بفعل مايدعى انه روح ميت.

وبعد قليل من الزمن أخذ جرس صغير كان موضوعاً على خوان يرن في

الهواء واستقر على سرير يبعد عن الوسيطة بنحو مترين. وبينما كنا نسمع رنين الجرس كلفنا الدكتور اسنسي بأن يقوم ويقف خلف مدام اوزابيا وان يشعل عوداً من الثقاب ففعل واستطاع ان يرى الجرس معلقاً في الهواء ثم ذهب وسقط على السرير خلف الستار.

وسمعنا بعد ذلك - لأننا كنا لانزال في الظلام - أن منضدة تتحرك بينما يدا الوسيطة كانتا مقبوضاً عليهما بشدة من الدكتور تامبوريني ومني أنا.

وفي نفس الوقت احس الاستاذ فيزيولي بيد تجذب شاربه وتخز ركبتيه، وكانت تلك اليد صغيرة وباردة.

وفي نفس الوقت ايضاً سحب من تحتي الكرسي، الذي كنت جالساً عليه، وأعيد إلى مكانه ثانياً. وانتقل من مكانه فجأة بساط ثقيل في حجرة النوم كان على بعد اكثر من متر من الوسيطة، كأنما كان مدفوعاً بتيار من الريح، واتجه إليّ مغطياً جسمي كله. فحاولت ان اتخلص منه ولكني لم استطع ذلك الا بعد بذل جهد كبير. وشاهد بقية الحاضرين السنة صغيرة من النار، تتألق على بعد عشرة سنتمترات فوق رأسي ورأس الدكتور تامبوريني.

وبعد قليل رأينا قطعة كبيرة من أثاث الحجرة التي كنا فيها، موجودة بعيدة عن حجرة النوم وعلى مسافة مترين منا تقريباً، تسعى نحونا ببطء كأن احداً يحملها. فكان الناظر إليها وهي تتحرك، يخيل إليه ان حيواناً كبيراً يمشي إلينا.

وقد كررت هذه التجارب مع الاساتذة دواميس وكيابا وفردينوا فرأيت فوق ما رأيت ان كرسياً قفز من الأرض الى سطح المنضدة ثم عاد إلى مكانه الاول ...»[1]

علام تدل هذه العجائب من الأعمال التي يقف امامها العلم التجريبي حائراً مندهشاً، الا تدل على تغليب الروح على الجسد، الا تدل على ان هناك عالماً روحانياً اعظم قدرة واكثر تحرراً، وراء هذا العالم المادي؟

---

(١) لماذا انا مسلم - عبد الرحمن العيسوي

تحضير الارواح [1]

وهل بعد تحضير الارواح عملياً يبقى شك او شبهة؟

ان الادلة تضافرت على اثبات وجود الروح والعالم الروحي، والحجج القاطعة قضت بذلك. ومما زاد الامر جلاء والدليل وضوحاً خضوع تحضير الارواح للعلم التجريبي حتى اصبح علماً موضوعياً قائماً بذاته. له اصول وطرق ذكرتها الكتب المعنية بهذا الشأن، ومعاهد مخصوصة لهذا الغرض. «ففي انكلترا معهد دولي كامل الاستعداد يتولي تلك العملية في أي وقت. وتوجد الى جانبه معاهد اخرى ترعاها الحكومة الانجليزية لأنها تعتبر العلم الروحي ليس تدجيلاً او شعوذة. وانما هو في مقام العلم التجريبي من حيث الثبوت والصدق. وتوجد مجلات اسبوعية وشهرية منتظمة ومطابع لاتطبع الا الكتب الخاصة بعلم الروحيات [2]».

ومن عجائب طرق التحضير ما تسمعك صوت الروح الذي تطلب احضاره، ويريك خطه وتوقيعه كما كنت تعهده في حياته.

قال جـ . ارثر فندلاي:

«. . . ففي وجود الوسيط، لامنه، تتكلم اصوات تدعي انها اولئك الذين ماتوا، وعندما رددنا عليها اجابت اجابات كيسة تثبت انه ليس هناك عقل وراء الصوت فحسب، بل هناك ايضاً روح قادر على ان يسمع كما هو قادر على ان يتكلم.

وكثيراً ما سمعت انا وكثيرون غيري صوتين واحياناً ثلاثة اصوات مختلفة نغمة ولهجة وشخصية تخاطب في آن واحد اولئك الحاضرين في موضوعات مختلفة لايعرفها فقط الا الشخص المقصود المخاطب، على حين يكون

---

(١) الرأي الراجح عندنا في تحضير الارواح انه لاتحضر ارواح الاموات انفسهم بل تحضر ارواح اخرى من العالم غير المنظور. وهو دليل يقوم على نسف المذهب المادي نسفاً

(٢) لماذا أنا مسلم - عبد الرحمن العيسوى

الوسيط مشغولاً بالحديث في موضوع آخر مع شخص جالس بجواره، او على حين يكون فم الوسيط مطبقاً لاينبس بكلمة واذني ملاصقة له»

ويقول في ص ٣٣ :

«اما ان هذا الصوت غير صوت الوسيطة فقد تحقق عن طريق تلك الآلة المانعة للصوت التي وضعت على فم الوسيطة فمنعتها من الكلام اثناء حديث هذا الصوت. وقد اخترعت هذه الآلة لتجعل الكلام من قبل الوسيط مستحيلاً عند استعمالها.»

ويذكر حوادث كثيرة تدلل على ان صاحب الصوت شخص لابد انه هو الذي يدعيه. الانسان الذي كان يعيش يوماً معنا. فلقد ذكر ان صوتاً خاطب احد الحاضرين قائلاً: «لقد رأيتك يامستر لانج انت ومسز لانج تتحدثان امس مع البستاني. . . فيجيب مستر لانج قائلاً: «اجل هذا صحيح» فيقول: «نعم وكنت تطلب اليه ان ينقل شجرة ورد من جانب المنزل ويضعها في مكان آخر من الحديقة»: فيجيبه: «هذا صحيح ياصديقي فلقد فعلت ذلك. وهل رأيت او سمعت غير هذا؟» وهكذا يستمر الحديث بين الصوت والمستر لانج، ثم ينتهي ذلك الحديث بأن يقول مستر لانج: «نعم ياصاحبي لابد انك كنت هناك ولو أني لم ارك لان كل ماحدثتني به قد وقع فعلا». وبعدئذ يصبح الحديث ادخل في الامور الشخصية. . . . .».

«وقبل نهاية الحرب زارني جندي صغير من برث باستراليا، فاستصحبته معي ذات ليلة الى سلون ـ الوسيط، فخاطبه صوت ذاكراً اسمه واسم الاورطة، فقال صاحبي: «ولكني متأسف لاني لا اعرفك». فأجابه الصوت: «انك تجد اسمي على نصب الحرب التذكاري المقام في برث». فقال صديقي: «ولكني لا اعرف ان في برث نصباً حربياً تذكارياً فاين هو فيها؟» قال: «انه مقام في شارع. . . .» وقد ذكر اسم الشارع. . قال صاحبي: «اني اعرف برث معرفة تامة ولا يوجد فيها شارع بهذا الاسم». ومضت سنة على ذلك تسلمت بعدها خطاباً من صاحبي هذا يقول فيه: انه قد انشىء في اثناء غيابه شارع جديد بهذا الاسم في المتنزه واقيم على مثلث هناك نصب تذكاري

محفور عليه اسم الرجل وفق ما اخبره به في الجلسة بالضبط.

بل هناك ماهو اغرب من ذلك أنها تريك الروح بعينه ولو كان متوفى منذ اعوام طويلة.

وذكر عن «مدام اوزابيا» الوسيطة الروحية انه طلب المالي هيرشي منها ان يتكلم مع روح انسانة كانت عزيزة عنده فرأى وجهه وكلمته بالفرنسية. وكانت فرنسية الجنس وماتت منذ عشرين سنة. وكذلك الدكتور بارت رأى اباه الذي عانقه مراراً.

وقد اخترع العلماء اجهزة خاصة لتصوير الروح واظهار صوته وتسجيله على اسطوانات مخصوصة. وأغرب من ذلك ان هذه الارواح تستعين على الظهور لنا ومخاطبتنا بأن تستعير من الوسيط او من الحاضرين مادة الاكتوبلازم وتجعل منها قناعاً نستطيع به رؤياها ومخاطبتها.. «ومن عجائب العالم الروحي انه توجد في عالمنا هذا مؤلفات من تأليف الارواح وليست من تأليف احيائنا منها كتاب (تعاليم سيلفر بيرش) وقد حلي صدر هذا الكتاب بصورة الروح مأخوذة بالطرق العلمية الحديثة. وهذا الروح المؤلف (تعاليم سيلفر بيرش) يظهر اسبوعياً ويحاضر في مختلف الشؤون وتستغرق محاضراته تسعين دقيقة متوالية، يدون خلالها كل مايقوله. وسجلوا لهذا الروح صوته على اسطوانة نفدت بعد ظهورها بأيام [1]».

وجاء في كتاب (حجرة تحضير الأرواح) تأليف الدكتور ادرين فردريك باورز استاذ الأمراض العصبية في جامعة مينا بولس بالولايات المتحدة ص ١١٢ كلاماً شبيهاً بهذا، نصه:

سجل في لندن صوت عميد الأرواح المتصلة بنا وهو الروح المسمى نفسه سيلفر بيرش Silver Birch فوق اقراص الجرامافون، وقد نفدت هذه الاقراص بعد اسبوع من ظهورها. ووسيط هذا الروح للغيبوية في دائرة الكاتب اللبق والصحفي القدير هانن سوافر Hannen Swaffer صاحب التآليف الروحية

(١) لماذا انا مسلم ص ٤٩ - عبد الرحمن العيسوى

الشهيرة، والمحرر في جريدة التيمس هو الكاتب الروحي العلامة موريس باربانل M. Barbanel محرر بمجلة توور لدز. وقد قام بعملية تسجيل الصوت مستر فيليب هيامز Mr. Philip Hyasmis مهندس شركة تسجيل الاصوات المسماة سمسون هوم ريكوردنج كومباني بلندن.

Samson Home Recordin§ Co, 4Pread Str. London. W.2

وهذه الشركة مستعدة لارسال مهندسها لتسجيل أصوات الارواح المراد تسجيلها أزاء جعل معين.»

المكاشفات

ومن عجائب العلم الروحي «المكاشفات»

ونعني بالمكاشفة إزاحة الستار عن العالم المستور وتبدّيه، ورؤية الارواح عياناً وذلك واقع. فقد ذكر الامام الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال) بأن ذلك أول درجات الصوفية. يقول الامام:

«ومن أول الطريقة تبتدأ المشاهدات والمكاشفات حتى انهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الانبياء ويسمعون منهم اصواتاً ويقتبسون منهم فوائد، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال الى درجات يضيق عنها نطاق النطق».

قال الباحث الكبير جـ. ارثر. فندلاي في كتابه على «حافة العالم الاثيري ص ٣٠»

« ينقسم البحث الروحي الى عدة أقسام، يبحث أحدها مثلا في مسألة التحريك عن بعد elekinesis أي نقل الاجسام دون لمسها، ويبحث ثان في الظواهر العقلية كالغيبوبة trance والجلاء البصري أي رؤية غير المنظور clairvoyance والجلاء السمعي أي سماع غير المسموع clairaudience والتلباثي أي الشعور عن بعد telepathy. ويختص ثالث بدراسة مايسمى الصوت المباشر أو المستقل.»

حدثني رجل معروف بصلاحه وهو يناهز العقد السادس من العمر انه بينما كان مستغرقاً في ورده المخصوص في احدى الرياضات الروحية بعد احدى صلوات العشاء، اذ انكشف له الحجاب وازيح الستار عن المجهول أمام ناظريه فيقول: واللهأنا إلا على تمام من اليقظة إذ أرى العالم المستور كهذه الشمس الضاحية، وهل في هذه الشمس مسكة من الشك؟

عن عبد الله بن مسعود انه قال: صلى رسول الله ﷺ العشاء ثم انصرف فأخذ بيدي حتى خرج الى بطحاء مكة فأجلسني ثم خط علي خطاً ثم قال لاتبرحن خطك فانه سينتهي اليك رجال فلا تكلمهم فانهم لايكلمونك. ثم مضى رسول الله ﷺ حيث أراد فبينا أنا جالس في خطي إذ أتاني رجال كأنهم الزط أشعارهم وأجسامهم لاأرى عورة ولا أرى بشرا وينتهون إلى لايجاوزون الخط ثم يصدرون الى رسول الله ﷺ حتى اذا كان آخر الليل لكن رسول الله ﷺ قد جاءني وانا جالس فقال لقد رآني منذ الليلة. ثم دخل علي في خطي فتوسد فخذي فرقد وكان رسول الله ﷺ اذا رقد نفخ فبينا انا قاعد ورسول الله ﷺ متوسد فخذي اذا برجال عليهم ثياب بيض الله اعلم مابهم من الجمال فانتهوا الي فجلس طائفة عند رأس رسول الله ﷺ وطائفة منهم عند رجليه ثم قالوا ما رأينا عبداً قد اوتي مثل ما اوتي هذا النبي ان عينيه تنامان وقلبه يقظان اضربوا له مثلاً مثل سيد بنى قصراً ثم جعل مأدبة فدعا الناس إلى طعامه وشرابه فمن اجابه اكل من طعامه وشرب من شرابه، ومن لم يجبه عاقبه او قال عذبه. ثم ارتفعوا واستيقظ رسول الله ﷺ عند ذلك. فقال سمعت ما قال هؤلاء وهل تدري من هم؟ قلت الله ورسوله اعلم قال هم الملائكة. فتدري ما المثل الذي ضربوه؟ قلت الله ورسوله اعلم قال الرحمن بنى الجنة ودعا إليها عباده فمن اجابه دخل الجنة ومن لم يجبه عذبه.

ومن الثابت عندنا ان الانسان في حالة النزع قد يكشف له الحجاب ويرى الملائكة عياناً ويخاطبهم ويرد عليهم تحياتهم، وقد يرى اقاربه الاموات ويحادثهم قال تعالى «ولو ترى اذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة

باسطو ايديهم أخرجوا انفسكم اليوم تجزون عذاب الهون» ولقد تكلم في هذا الأمر خلق كثير في القديم والحديث. وقد وردت حكايات كثيرة بهذا الشأن. وقال «ولو ترى اذ يتوفي الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وادبارهم».

«وقصة خير النساج رحمه الله مشهورة حيث قال عند الموت:

اصبر عافاك الله فان ما أُمرتَ به لايفوت وما أمرتُ به يفوت.

ثم استدعى بماء فتوضأ وصلى، ثم قال امض لما امرت به، ومات.

وذكر ابن ابي الدنيا ان عمر بن عبد العزيز لما كان في يومه الذي مات فيه قال أجلسوني، فأجلسوه. فقال: أنا الذي امرتني فقصرت ونهيتني فعصيت (ثلاث مرات) ولكنلا اله الا الله .ثم رفع رأسه فأحدّ النظر، فقالوا إنك لتنظر نظراً شديداً ياامير المؤمنين. فقال إني لأرى حضرة ماهم بانس ولا جن ثم قبض.

وقال مسلمة بن عبد الملك: لما احتضر عمر بن عبد العزيز كنا عنده في قبة. فأومى الينا أن اخرجوا فخرجنا فقعدنا حول القبة وبقي عنده وصيف. فسمعناه يقرأ هذه الآية (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علواً في الارض والافسادا والعاقبة للمتقين) ما انتم بانس ولا جان. ثم خرج الوصيف فأومي الينا ان ادخلوا فاذا هو قد قبض.

وقال فضالة بن دينار حضرت محمد بن واسع وقد سجي للموت فجعل يقول مرحباً بملائكة ربي ولا حول ولا قوة الا بالله (١)».

وحدثني احد الأصدقاء انه كان حاضراً وفاة عمه مع بقية اعمامه واهله، فقال:

كان عمي على تمام من التمكن من نفسه حين حضرته الوفاة، وقد قال: ها أنا يا إخوتي احس بالموت يدب في جسمي ويسري في اعضائي.

يا إخوتي! ليس الموت الاخدراً يفقد الأعضاء الحس. هات دبوساً يابني. اغرزه في رجلي.. ها أنا لا احس. ان رجلي قد ماتت. وبعد هنيهة قال:

---

(١) كتاب الروح لابن القيم

يا إخوتي! يا أخي فلان وانت يافلان وانت يافلان هل تنكرون من عقلي شيئـاً؟ ألا ترون أنـي على تمـام من التمكن من نفسي؟ ها أنـا اسـرد لكم اخباركم ان كنتم تشكّون في ذلك.

وبدأ يقص على كل واحد منهم ما كان حدث له وهم لم ينكروا عليه شيئاً. فقال:

إذن فاعلمـوا، انني ارى الآن جمـلاً ابيض ضخم الجثـة باركـاً وسـط هذه الغـرفـة. لاتقـولـوا كيف؟ فأنـا متعجب اكثـر منكم. أنا أعلم اننا في غرفة في الطابق العلوي وان الدرج الضيق يحول بيننا وبين الأرض فلا تسألوني كيف صعد ومن أين دخل؟ فأنا أولى ان اسأل هذا السؤال. ولكن اعلموا هذا وكفى.

ياإخـوتي! ها أنـا ارى شيئـاً آخـر. ياإخوتي! ياإخوتي.... فخانه التعبير، واراد أن يتكلم فتقطعت نبـراتـه. وأخـذ ينظـر نظـرات حادة ويتنهـد نتهـدات عميقة. فما استطاع أن يبوح بأكثر من هذا. وحيل بينه وبين ما أراد.

ففاضت روحه رحمه الله...

وورد في الخبر أن المحتضر يكشف له عن مقعده في الجنة او النار. فقد جاء عن ابن عباس انه قال:

بينما رسول الله ﷺ ذات يوم قاعد تلا هذه الآية (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو ايديهم) الآية قال والذي نفس محمد بيده ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة والنار، ثم قال فاذا كان عند ذلك صف له سماطان من الملائكة ينتظمان مابين الخافقين كـأن وجوههم الشمس فينظر إليهم ماترى غيرهم وان كنتم ترون انهم ينظرون اليكم، مع كل منهم اكفان وحنوط فان كان مؤمناً بشروه بالجنة. وقالوا اخرجي ايتها النفس الطيبة الى رضوان الله وجنته فقد أعد الله لك من الكرامة ماهو خير من الدنيا وما فيها فلا يزالون يبشرونه ويحفون به فلهم الطف وأرأف من الوالدة بولدها ثم يسلون روحه... الخ) الحديث وهناك ضرب آخر من المكاشفات نذكر طرفاً منه في باب الفراسة لأنه الصق به.

اثبات وجود الروح

ماذا نعني بالروح؟

اننا لانعني بـ «الروح» هذه الحياة التي في الاجهزة والخلايا، والتي هي موجودة في الحيوان والنبات كما في الانسان، ولاينبغي على ذلك ان نفرد الانسان بها. وما كان ليستحق الانسان بها ان يسجد الله له ملائكة.

ولكنا نعني بها لطيفة ربانية وجسماً نورانياً شفيفاً متميزاً عن هذا الجسم المادي النابض بالحياة. تستطيع الانفصال عنه بعض الانفصال من غير ان يفارق حياته او تتوقف اجهزته. وهي التي تدبره وتحركه وتريد وتعاف ونحن لانعرف كنهها لأنها من عالم الغيب.

قال الدكتور محمد عبد الله دراز:

«ليس المقصود بالروح هنا ـ حسبما يوحي به التعبير غير الموفق ـ باسم المذهب الحيوي ومبدأ الحياة الحيوانية، اعني تلك القوة التي تقوم عليها وظائف النمو. والتنفس، والحس، والحركة، بل المقصود نوع آخر اسمى من ذلك، هو مبدأ حياة التفكير، والارادة المنظمة، والعاطفة، والضمير، وبالجملة مبدأ الحياة العاقلة الرفيعة.

كل احد يستطيع ان يميز بين هذين النوعين، ويدرك ان هذا الروح، الذي هو خاصة بالانسانية، ذو كيان مستقل عن ذلك الروح المشترك بين الانسان والحيوان.

فنحن نرى النائم والمغمى عليه والمصروع يتنفسون ويتغذون ويمشون، فهم احياء بالحياة الحيوانية ليس غير، حتى تعود اليهم تلك القوة الخاصة فيعود اليهم شعورهم المنظم وتفكيرهم المستقيم.

هذه التجربة تجربة صحيحة، والفكرة التي استنبطت منها، وهي التميز بين القوتين، فكرة سليمة، لايزال العلم يقررها حتى يومنا هذا.»

رأى الشرع في جسمية الروح وتميزها عن هذا الجسم [1]

ان الادلة الشرعية على جسمية الروح وانها متميزة عن هذا الجسم من الكثرة بمكان. ولا نريد ان نستقصيها كلها، بل نكتفي بأدلة قليلة من القرآن الكريم والسنة المطهرة.

١ ـ قال الله تعالى في كتابه الكريم «الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى اجل مسمى». فقد اخبر الله سبحانه أنه يتوفى الأنفس حين الموت وفي النوم وانه يمسكها او يرسلها. وفي هذا ما يدل دلالة واضحة على تميزها.

٢ ـ وقال تعالى «ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا انفسكم، اليوم تجزون عذاب الهون» تذكر الآية بأن الملائكة يبسطون ايديهم لتناولها كما وصفها بالاخراج والخروج وهذا لايكون الا لجسم متميز.

٣ ـ وقال أيضاً «يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي». فوصفها سبحانه بالطمأنينة والرجوع ووصفها بالرضا والدخول.

٤ ـ ومما يدل على ذلك ايضاً قوله (ﷺ) «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» فوصفها بأنها جنود مجندة. والجنود ذوات قائمة بنفسها ووصفها بالتعارف والتآلف والتناكر والتخالف. وذلك يدل قطعاً على تميزها وجسميتها.

٥ ـ اقرار الرسول (ﷺ) قول عمارة بن خزيمة: إن الارواح تتلاقى في المنام.

٦ ـ قوله (ﷺ) «أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت وتأوي إلى قناديل العرش...» مما لايدع مجالاً للشبهة.

(١) راجع تفصيل ذلك في كتاب الروح لابن القيم

٧ ـ حديث البراء بن عازب (رض) عن رسول الله (ﷺ) عن كيفية نزع المؤمن ونزع الكافر وهو حديث طويل ومنه:

«فاذا صارت [1] إلى ملك الموت ابتدرها الملكان فأخذاها منه فحنطاها بحنوط من الجنة وكفناها بكفن من الجنة ثم عرجا به إلى الجنة».

ويتكلم عن روح الكافر قائلاً «... وجاء ملك الموت فيجلس عند رأسه ثم قال اخرجي ايتها النفس الخبيثة. اخرجي الى غضب الله وسخطه فتفرق روحه في جسده كراهية ان تخرج لما ترى وتعاين فيستخرجها كما يستخرج السفود من الصوف المبلول. فاذا خرجت نفسه لعنه كل شيء بين السماء والأرض الا الثقلين ثم يصعد به الى السماء فتغلق دونه...»

وهو يدل قطعاً على جسمية الروح. فقد اخبر انها تكفن بكفن وتحنط وتحمل وتؤخذ.. وذلك لايكون الا اذا كانت متميزة.

٨ ـ وفي حديث الصور ان اسرافيل عليه السلام يدعو الارواح فتأتيه جميعاً ارواح المسلمين نوراً والاخرى مظلمة فيجمعها جميعاً فيعلقها في الصور ثم ينفخ فيه فيقول الرب جل جلاله وعزتي ليرجعن كل روح الى جسده فتخرج الارواح من الصور مثل النحل قد ملأت مابين السماء والارض فيأتي كل روح الى جسده فيدخل...»

وذلك كله مما يدل دلالة قطعية على جسمية الروح وتميزها وأنها غير الحياة، فبينا نرى الروح خالدة باقية، إذا بنا نرى الجسد قد تمزقت اوصاله وتفتت عظامه وافترقت ذراته.

وجودها

عرف الناس وجودها من قديم الزمان، وأحسوابها بين جنبيهم، تسكن اجسامهم وتأوي ابدانهم. فهم عرفوا ان لكل جسم صاحبا، وساكن اجسامهم

(١) النفس

وصاحب ابدانهم يحسونه هم ويدركونه هم، فبهذه النظرة الاولية الصادقة ادركوا وجود الروح.

وعلى كل فانا سنتلهم الأصول في تقرير وجودها ولا نذهب مذاهب فلسفية بعيدة.

أدلة وجودها

- ١ -

التفكير والعلم

يقول البعض ان المخ هو الذي يفكر ويعقل، ونقول نحن انه الروح.. اذ كيف يفكر المخ وهو مادة غافلة عن وجودها لاتعرف بنفسها ولا اقسامها ووظائفها [١]؟

انه لو لم تكن هناك ذات اخرى تحل في البدن تعرف وجودها لبطل التفكير.

ان الذي يفكر ويعقل هو الروح، اما المخ فهو آلة للادراك. واستعداده لذلك كاستعداد آلات النجار والصائغ للعمل.

فالنجار وإن كان قادراً في صنعته، ماهراً في مهنته الا انه لايستطيع ان يعمل ويقطع ويطعم ويزخرف الا بآلات يستخدمها. فالروح تستخدم العقل للتفكير كما يستخدم النجار آلاته.

يقول الدكتور هنري لنك عن العقل: «فكما ان الاسنان خلقت للمضغ بها لا لمضغ نفسها، كذلك العقل قد وهب للتفكير بواسطته لا للتفكير في استكناه امره فالعقل آلة نعيش بها لا لأجلها».

وان الشرع ليؤيد هذا الرأي. ففي عدة اماكن من القرآن الكريم نرى الخطاب موجهاً الى النفس، ومنه قوله تعالى «يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي

---

(١) راجع برهان الذات

الى ربك راضية مرضية»

وفي الحديث عن البراء بن عازب «... وجاء ملك الموت فجلس عند رأسه [1] ثم قال اخرجي ايتها النفس المطمئنة، اخرجي الى رحمة الله ورضوانه فتنسل نفسه كما تقطر القطرة من السقاء...»

وهذا الخطاب من ملك الموت لنفس المحتضر لمن يفهم ويعقل.

وفي الحديث الصحيح عن الشهداء لما سئلوا ما تريدون؟ قالوا نريد ان ترداوراحنا في اجسادنا حتى نقتل فيك مرة اخرى.

فهذا سؤال وجواب من ذات حية عالمة ناطقة. واخبر ابن عباس ان ارواح الأحياء والاموات تلتقي في المنام فيتساءلون بينهم فيمسك الله ارواح الموتى ويرسل ارواح الاحياء إلى اجسادها. مما يدل على ان الارواح هي التي تسأل وتفكر وتعقل، وان التفكير ليس ظاهرة جسدية.

- ٢ -

الشعور بالنفس ومعرفة الذات

إن كل انسان يشعر بنفسه ويحس بذاته. فمن اين تنبع هذه المعرفة ويصدر هذا الشعور؟

ان اكبر الظن انه يصدر مع التفكير ومن نفس الشيء المفكر، فاذا ثبت ان المخ ليس هو المفكر - وهو ثابت - ثبت كذلك ان الذي يشعره بوجوده ويعلمه بذاته هو شيء غير المخ وهو ما نسميه بالروح.

انه لو لم تكن ذات اخرى شاعرة بوجودها عالمة بنفسها تحل في هذا الجسد الغافل لما شعر بنفسه وعرف بوجوده. وانه متى تركت هذه الذات الجسد غفل عن نفسه كما في النوم، اجهزة الانسان كلها بكامل حياتها ولكنه غافل عن وجوده.

---

(١) المحتضر

وادلة الشرع تثبت لنا ان الارواح هي التي تعلم بنفسها وتحس بوجودها وتعرف ذواتها لا الجسد. وفيما تقدم من الأدلة كفاية لمن اراد الاقتناع.

- ٣ -
الذات هي الروح

شعور الانسان بنفسه، ومعرفته بذاته وراء جسمه المادي ووراء اجهزته هو الروح بعينه. والتي حينما يثيره شخص أو يهينه بكلمة أو صفعة يعرف أن الاهانة ليست موجهة إلى اجزائه ولا إلى عضو من اعضائه. وإنماالى ما وراء الاجهزة. إلى غير المنظور منه إلى ذاته. إلى نفسه.

- ٤ -
الفرح والحزن

الفرح والحزن والارادة والكره لاتكون إلا من الروح، فهذا الفرح الشفيف، والحزن العميق والارادة المحركة من أين تنبع؟ ومن أين تصدر؟

هل هناك عضو من الاعضاء يفرح ويألم ويريد ويعاف ويفيض بهذه الصفات على غيره؟

إن هذه لاتصدر إلا عن الروح ولاتكون إلا في الروح. وإن القرآن الكريم والأحاديث النبوية ليقران ذلك ولا ينكرانه.

يقول الله سبحانه «يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي» فهو يصفها بالاطمئنان والرضا والدخول في الجنة للتمتع.

ويقول في آية اخرى «ولاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل احياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضلهويستبشرونبالذين لم يلحقوا بهم الا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يستبشرون بنعمة من الله وفضل وان الله

لايضيع أجر المؤمنين» فهو يصف أرواح الشهداء بأنها تفرح وتستبشر ولاتخاف او تحزن بعكس أرواح العصاة والكافرين.

ويقول ﷺ «الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» فوصفها بالتعارف والتآلف كما وصفها بالتناكر والتنافر.

- ٥ -

إن كلمة (أنا) أو ما نسميها بالذات تصاحب الانسان طوال حياته ولاتتغير بمرور الزمن كما يتغير بدنه. فهو يشعر بأن ذاته بقيت هي نفسها لم تتغير بالرغم من أن بدنه في حالته الحاضرة غيره بالمرة في الاعوام الماضية فهو دائم التبدل والتغير فقد ذهب شيئاً فشيئاً وجاء مكانه بالأغذية بدن آخر. وعلى الرغم من ذلك فان الانسان في الخمسين من عمره يشعر بأنه عين الانسان في كهولته وشبابه ويعترف بأعماله الماضية. فما هو هذا الثابت غير المتبدل على مر الدهور وكر الزمن؟ اليس هو الروح؟!

- ٦ -

الذاكرة والدماغ

كتب الفيلسوف الفرنسي الكبير «برغسون» عن النفس والبدن والروحية والمادية كتباً كثيرة وعقد فصولاً غير قليلة في ذلك وسنقتطف منها شيئاً قليلاً عما نحن بصدده.

ان الذاكرة هي الوظيفة النفسية، التي كان من اسهل الامور ان نفسرها تفسيراً مادياً. ولكن الذاكرة اكثر من وظيفة من وظائف الشعور، انها الشعور ذاته. واذن، ان مسألة العلاقات القائمة بين النفس والبدن، سوف تتخذ شكلاً دقيقاً وهو: هل نستطيع ان نجعل من الذاكرة وظيفة من وظائف الدماغ؟

كانت النظرية، المجمع اجماعاً عاماً على تقبلها، في العصر الذي كتب فيه «برغسون» هي التالية: ان الذكريات تنطبع في الدماغ، على شكل آثار يتركها التيار العصبي فيه. وكان البرهان على ذلك، كما يقال، هو ان اصابات

المراكز الدماغية تؤدي الى «الأمنيزيا» او النسيان المرضي. لقد حدد «بروكا» Broca المراكز الدماغية لذاكرة الكلمات، تحديداً دقيقاً جداً...

ان «برغسون» يذهب قبل كل شيء، ليثبت ان هذه النظرية لاتحسب للتجربة حسابها. الا بصعوبة. والحقيقة ان هناك حالات تشفى فيها الامنيزيا، فالمريض يجد الذكريات التي «اضاعها» مرة ثانية، واذن، فهذه الذكريات لم تكن موجودة في الخلايا الدماغية، التي ابادتها الاصابة، والا لكان لابد لها من ان تذهب معها الى غير رجعة.

ان الفرضية التي توحي بها هذه الوقائع، هي التالية: ان كل شيء يحدث كما لو كانت الذكريات المحفوظة في مكان آخر غير الدماغ، تحتاج مع ذلك، الى تكامل بعض الاجهزة الدماغية، من اجل ان تستدعى. ان ما تخربه الاصابة الدماغية، وما يعاد بناؤه في حالة الشفاء، هو الجهاز الدماغي. الذي لابد منه لاستدعاء الذكريات. فلنر الآن كيف بررت هذه الفرضية. يقول «برغسون»:

ان لم تكن الذكرى مخزونة في الدماغ، فأين تحفظ اذن؟

الحق يقال، انني لست متيقناً فيما اذا كان السؤال «اين» له معنى، حينما لانعود نتكلم عن البدن. ان الصور الفوتوغرافية تحفظ في علبة، وان الاسطوانات الصوتية تحفظ في خزانة، ولكن، لماذا كانت الذكريات، التي ليست اشياء مرئية ولا ملموسة، تحتاج الى مايحتويها، وكيف يمكن لها ان يكون لها ما يحتويها؟ ومع ذلك، انني سأتقبل معنى الاحتواء هذا اذا ما تشبثم به، ولكنني سأفهم فكرة الاحتواء فهماً مجازياً خالصاً، بحيث تصبح الذكريات قابعة في مايحتويها، وهذا سيدعوني عندئذ الى القول، بكل بساطة، انها في الفكر. انني لاأقوم بافتراض من الافتراضات، ولا الجأ الى جوهر من الجواهر الغامضة، وانما اتشبث بالملاحظة، اذ انه مامن شيء معطى بصورة مباشرة ولا من شيء واقعي بصورة بديهية، اكثر من الشعور، والفكر الانساني هو الشعور بالذات. ومن جراء ذلك، كان الشعور يعني الذاكرة، قبل كل شيء (الطاقة الروحية ص ٨٥).

ولننظر في الواقع كيف ان الذاكرة والشعور شيء واحد:

اني حينما ألفظ كلمة «حديث» لا يحضر اول الكلمة ووسطها وآخرها الى ذهني فقط، بل تحضر الكلمات السابقة لها، وحتى مالفظته من الجملة، والا لفاتني سياق الحديث.

واذا كان الماضي ينعدم في كل لحظة، كان لابد للفكر ان ينعدم فيه. ان الحاضر الخالص هو اللاشعور... لندفع بهذا التفكير الى نتائجه، ولنفترض ان حديثي يدوم منذ سنوات، وانه يتابع جملة وحيدة، ولنفرض ان شعوري كان منفصلاً انفصالاً كافياً عن المستقبل، وغير مهتم اهتماماً كافياً بالفعل، في سبيل ان يتطوع تطوعاً نهائياً، ليجمع معنى الجملة: وعندئذ، فأنا لن ابحث عن تفسير افسر به كيفية حفظ هذه الجملة حفظاً كاملاً. اكثر مما ابحث عن تفسير افسر به كيفية بقاء المقطعين الاولين من كلمة (حديث) حينما الفظ المقطع الاخير (الطاقة الروحية ص ٥٨ ـ ٦٠) ان كل الماضي يحفظ، وهذا الحفظ هو الشعور ذاته، فلنذكّر بذلك. ان وجود الذاكرة مثل وجود الشعور، لايمكن الشك فيه، وهو معطى بصورة مباشرة، على حد سواء. انه مامن حاجة بعد الآن، للاتيان ببرهان على وجود الذاكرة، ولتفسيرها، كما انه ما من حاجة للاتيان ببرهان عام على وجود الشعور، بل ان مايتطلب تفسيراً، بالمقابل، هو النسيان الذي يغيب فيه مجموع ذكرياتنا... أن العمل والأنتباه الى الحياة هما اللذان يكتبان القسم الاكبر من ماضينا بأستثناء ماضينا المفيد.

وظيفة الدماغ الحقيقية: ولكن الدماغ ـ كما يعلمنا ذلك علماء الفيزيولوجيا ـ هو عضو تركيز العمل،.. ان وظيفة الدماغ هي تضييق ساحة الشعور، إلى درجة يستطيع معها أن يتطابق مع الحاضر، ومع الغاية المباشرة للعمل... يستخرج من الشعور كل مايمكن الاستفادة منه في سبيل انجاز العمل، ويلف بالظلمة القسم الاكبر مما تبقى... فهو لايقوم بحفظ الماضي، وانما في حجبه في بادىء الامر ومن ثمت، في ترك مايصلح للعمل يشف عن ذاته... ولكن خلف الذكريات التي تأتي، وتحشر نفسها على هذا النحو في اعمالنا الحاضرة،.. آلافا مؤلفة من الذكريات الاخرى، قابعة في القاع، تحت المشهد الذي يضيئه الشعور.. ان

حيواتنـا الماضية قائمة هناك، محفوظة حتى في ادق تفاصيلها .. بيد ان الذكريات التي تحفظها ذاكرتي، على هذا النحو، في أشد اعماقها ظلاماً لا تزال في حالة أشبه ما تكون بالاطياف الخفية .. ولكن، افترضوا أنني «لم اعد أهتم» في لحظة معينة، بالوضع الراهن، والعمل الملحاح. افترضوا بتعبير آخر، أنني أنام. عندئذ فان هذه الذكريات الساكنة تبدأ بالحركة، حينما تشعر أنني بدأت بأزاحة الحاجز، ورفعت باب الحفرة الذي كان يمسكها في أعماق الشعور. أنها تنهض، وتتحرك، وتقوم في ظلمة اللاشعور، برقصة هائلة من رقصات الاموات. ثم تركض كلها معاً نحو الباب الذي بدأ بالانشقاق. (الطاقة الروحية ١٠١).

الخلود المحتمل: ويتابع «برغسون» الكلام:

ولكن، هذا معناه أيضاً، أن حياة الروح لايمكن أن تكون نتيجة من نتائج حياة البدن، وأن كل شيء يجري خلافاً لذلك، كما لو كان البدن مستخدماً من قبل الروح بكل بساطة، وأنه ليس لنا أي حق بعدئذ في ان نفترض أن البدن والروح مرتبطان فيما بينهما ارتباطاً لا ينفصل....

اذا كانت الحياة الذهنية تفيض عن الحياة الدماغية. وإذا كان الدماغ ينحصر عمله في تحويل قسم صغير، مما يجري في الشعور، الى حركة كما حاولنا أن نبرهن على ذلك، فأن الاستمرار في الحياة سيصبح عندئذ شبيهاً بالحقيقة، حتى ان الالزام بالحجة سيقع على من ينكر، أحرى من ان يقع على من يثبت، لأن السبب الوحيد، الذي يدعو الى الايمان بأنطفاء «الشعور» بعد الموت، هو رؤية البدن يتحلل، وانه مامن قيمة لهذا السبب، وأن كان أستقلال الشعور بكليته تقريباً عن البدن، هو أيضاً واقعة نلاحظها. أننا لانستطيع إلا أن نعجب بهذه السهولة، التي أنقلبت فيها كل من وضعي الروحين والماديين. إن المفكر المادي هو الذي يجب أن يدافع عن موقفه الآن، ومن شأنه ان يدلي بحججه بعد أن لم يعد هذا من شأن المفكر الروحي...

وعلى هذا النحو، فأن الفكر قد «أعيد لذاته»، فالمادية والحتمية اللتان جعلتاه

يشك بنفسه وبمصيره، لم تعودا إلا طيفين عابثين.

- ٧ -

قال ابن مسكويه في الفوز الأصغر مستدلاً على حقيقة النفس:

إن كل عضو من أعضاء البدن إنما هو آلة مستعملة لغرض لم يكن لينال إلا به. فاذا كان البدن كله آلات ولكل آلة فعل خاص لايتم إلا بها، إقتضى إستعداده كما تستعد آلات الصائغ والنجار وغيرها.

وليس يجوز أن نقول إن بعض البدن يستعمل بعضه هذا الاستعمال لأن البعض هو آلة أو جزء من آلة وجميعها مستعملة ومستعملها غيرها.

فاذا كان مستعملها غيرها ولم يكن بجزء منها، وجب أن يكون غير جسم [1] وأن لايستعمل مكان الجسم، ولا يزاحم الآلات الجسمية في مواضعها.

ثم يعقب ابن مسكويه على ذلك قائلاً ببرهان علمي «والمزاج والأعراض التي توجد في الجسم كلها تابعة للجسم ومنفعلة عن نظام تركيبه فلا يمكن أن تكون مسّيرة للجسم مع أنها ناتجة عنه».

يقول أ كريسي موريسون في كتابه (العلم يدعو للايمان) «... فان الانسان بوصفه هذا قد يكون جهازاً. ولكن ما الذي يدير هذا الجهاز؟ لأنه بدون أن يدار لا فائدة منه. والعلم لايعلل من يتولى ادارته، وكذلك لايزعم أنه مادي.

لقد بلغنا من التقدم درجة تكفي لأن نوقن بأن الله قد منح الانسان قبساً من نوره. ولا يزال الانسان في طور طفولته من وجهة الخلق، وقد بدأ يشعر بوجود مايسميه «بالروح». وهو يرقى في بطء ليدرك هذه الهبة، ويشعر بغريزته بأنها خالدة.»

— ٨ —

قال الفخر الرازي في (التفسير الكبير): «إنـا نعلم بالضرورة إنّا اذا أبصرنا شيئاً عرفناه واذا عرفناه اشتهيناه واذا اشتهيناه حركنا ابداننا الى القرب

(١) يقصد أنها ليست بجزء من هذا الجسم الانساني ولا شيء يشبهه

منه فوجب القطع بان الذي أبصر هو الذي عرف وان الذي عرف هو الذي اشتهى وأن الــذي اشتهى هو الــذي حرك الى القــرب منه فيلزم القطع بأن المبصر لذلك الشيْ والعارف به والمشتهي والمتحرك الى القرب منه شيْ واحد إذ لو كان المبصر شيئا والعارف شيئا ثانيا والمشتهي شيئا ثالثا والمتحرك شيئا رابعـا لكـان الـذي أبصـر لم يعـرف ، والذي عرف لم يشته والذي اشتهى لم يتحرك ، ومن المعلوم ان كون الشيْ مبصراً لشيْ لا يقتضي صيرورة شيْ آخر عالماً بذلك الشيْ وكذلك القول في سائر المراتب . وايضا فانا نعلم بالضرورة ان الرائيْ للمرئيات لما رآها فقد عرفها ولما عرفها فقد اشتهاها ولما اشتهاها طلبها وحرك الاعضاء الى القرب منها ونعلم ايضا بالضرورة ان الموصوف بهذه الرؤية وبهذا العلم وبهذه الشهوة وبهذا التحرك هو لا غيره » ثم يمضي في الاستدلال الى ان يقـول : « وبينا ان المـدرك لجميـع المـدركـات والمحرك لجميع الاعضاء بكل انواع التحريكات يجب ان يكون شيئا واحدا . فلم يبق الا ان يقال في الادراك والقدرة على التحريك انه شيْ سوى هذا البدن وسوى اجزاء هذا البدن وان هذه الاعضاء جارية مجرى الآلات والادوات فكما ان الانسان يفعل افعالاً مختلفة بواسطة آلات مختلفة فكذلك النفس تبصر بالعين وتسمـع بالاذن وتتفكـر بالـدمـاغ وتعقـل بالقلب . فهذه الاعضاء آلات النفس وادوات لهـا . والنفس جوهـر مغـايـر لهـا مفـارق عنها بالذات متعلق بها تعلق التصرف والتدبر . وهذا البرهان برهان شريف يقيني في ثبوت هذا المطلوب والله اعلم »[١] .

— ٩ —

وقال الفخر الرازي أيضا إنه لو كان الانسان هذا الجسد لكان اما ان يقوم بكـل واحـد من الاجـزاء حيـاة وعلم وقـدرة على حدة اي يكـون كل جزء من الجسم حيا قادراً عالما على حدة ، واما ان يقوم بمجموع الاجزاء حياة وعلم وقدرة اي تكون في كل جزء من الاجزاء الحياة نفسها والعلم نفسه والقدرة نفسها .

---

(١) التفسير الكبير ٢١/٤٨ .

وقد ابطل القسمين فلم يبق الا ان يكون الانسان في الحقيقة غير هذا الجسد « اما بطلان القسم الاول فلأنه يقتضي كون كل واحد من اجزاء الجسد حيا عالما قادراً على سبيل الاستقلال فوجب ان لا يكون الانسان الواحد حيوانا واحداً بل احياء عالمين قادرين وحينئذ لا يبقى فرق بين الانسان الواحد وبين اشخاص كثيرين من الناس وربط بعضهم بالبعض بالتسلسل لكنا نعلم بالضرورة فساد هذا الكلام لأني اجد ذاتي ذاتا واحدة لا حيوانات كثيرين . وأيضا فبتقدير ان يكون كل واحد من اجزاء هذا الجسد حيوانا واحداً على حدة فحينئذ لا يكون لكل واحد منها خبر عن حال صاحبه فلا يمتنع ان يريد هذا أن يتحرك الى هذا الجانب ويريد الجزء الآخر أن يتحرك الى الجانب الآخر فحينئذ يقع التدافع بين اجزاء بدن الانسان الواحد كما يقع بين شخصين . وفساد ذلك معلوم بالبديهة .

وأما بطلان القسم الثاني فلأنه يقتضي قيام الصفة الواحدة بالمحال الكثيرة وذلك معلوم البطلان بالضرورة ... لأن بتقدير ان تحصل الصفة الواحدة في المحالّ المتعددة فحينئذ يكون كل واحد من تلك الاجزاء حيا عاقلا عالما فيتجرد الأمر الى كون هذه الجثة الواحدة اناسا كثيرين . ولما ظهر فساد القسمين ثبت ان الانسان ليس هو هذه الجثة »(١) .

بقي هناك قسم آخر متمم لهذين القسمين وهو ان تكون الحياة والقدرة والعلم انما هي قائمة بمجموع الاجزاء لاعلى وجه الاستقلال اي ان حياة الانسان وقدرته وعلمه انما هي تكون بمجموع الاجزاء كالآلة الواحدة المترابطة فمجموعها هو الآلة ولو نقص قسم منها لفسدت واختلت وظيفتها .

وبطلان هذا ظاهر ايضا ومن ادلة بطلانه ان الانسان ـ كما ذكرنا في برهان الذات ـ قد تقطع اطرافه وتقلع عينيه وتستأصل رئته ويبقى شعوره بنفسه كاملاً هو هو لم يتبدل بل نقلت لنا اخبار الطب ان القلب استبدلت بمكانه آلة ميكانيكية وبقي الشخص شعوره بنفسه هو هو لم يتغير وقد رأينا صورة هذا

---

(١) التفسير الكبير ٢١/٤٩ .

المريض بالتلفاز ورأينا الآلة الى جانبه تعمل وهو يتحدث عن نفسه . فلو كانت الحياة والعلم وغيرهما من الصفات الانسانية انما تقوم بمجموع الاجزاء لنقص شعوره بنفسه ويعلمه . قال الفخر الرازي : « ان الانسان اذا ضاع عضو من اعضائه مثل ان تقطع يداه أو رجلاه او تقلع عيناه او تقطع اذناه الى غيرها من الاعضاء فان ذلك الانسان يجد من قلبه وعقله انه هو عين ذلك الانسان ولم يقع في عين ذلك الانسان تفاوت حتى انه يقول انا ذلك الانسان الذي كنت موجوداً قبل ذلك الا انه يقول انهم قطعوا ايدي ورجلي . وذلك برهان يقيني على ان ذلك الانسان شيْ مغاير لهذه الاعضاء والأبعاض وذلك يبطل قول من يقول الانسان عبارة عن هذه البنية المخصوصة »[1].

- ١٠ -

ولنعد بعد فنسأل: ما شأن الذكي الالمعي، والفطن اللبيب، ما شأن الشاعر المفلق والخطيب المصقع والفصيح الملسن؟ ما شأن المنكت الفكه صاحب الروح الخفيف؟ ما شأن الشجاع الأوحد، وصاحب الفراسة التي لاتخطيء؟ ما شأن هؤلاء كلهم؟ ماذا يسيطر عليهم، ومن اعدهم هذا الاعداد الفريد؟

إنه ليس كل من حفظ الشعر أو قاله اصبح المتنبي أو البحتري، وما كل من درس البلاغة والفصاحة أصبح الاكثم أو سحبان، وما كل من تفكه اصبح جحا، وما كل من حمل الرمح أصبح عنترة. على ماذا يدل هذا النشاط الفريد؟ ألا يدل على نشاط خاص في أرواحهم واستعداد فيها؟

ثم ماشأن الموهوم والمعتوه الذي لايظهر الفحص الطبي والشعاعي أي خلل في أعصابه وفي أي عضو من أعضائه؟ وما شأن البليد الذي لايحفظ ولا يفقه مايلقى إليه ولو كان مروره عليه اكثر من الحبل الذي اثر في الصخرة الصماء؟ وما شأن ذلك الثقيل الظل الجافي الطبع، والرجل الجامد الذي لاتحركه الدنيا إن قامت وإن قعدت؟

(١) التفسير الكبير ٢١/٤٢

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز عن «وجود الروح»:

«.... فالواقع ان الفكر قد يلجأ إليها الجاء لتفسير ظواهر معينة لايجد لها تفسيراً آخر. ذلك انه كثيراً مايحدث في ميدان النشاط الانساني حوادث عجيبة، تخرج خروجاً بيناً، علواً أو انحطاطاً، عن المستوى المألوف للناس، أو المألوف للشخص نفسه في مجرى حياته العادية، بل لا يكاد يخلو عصر من العصور من وجود هذه الشواذ التي لايعرف لها سبب ظاهر فتنسب إلى سبب من تلك الأسباب المعنوية السرية، فالعراف الماهر، والشاعر الملهم، والخطيب المفوه والبطل الموفق، والصائد الذي لايخطيء سهمه، والحاسب السريع الحساب، السديد الجواب، من غير استعانة بقرطاس ولا قلم، في اطول المسائل واشدها تعقيداً، والالمعي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا» كل اولئك ينسب نجاحهم وعبقريتهم إلى انهم قد امدوا بروح خيرة، ذات قوة خارقة.

أضف إلى هذا كله ضروباً من التجارب الجزئية في الرؤيا الصادقة، والفراسة السديدة، والالهام الكاشف، والعلم بالحوادث البعيدة ساعة وقوعها، ورؤية الاشباح، وسماع الأصوات، إلى غير ذلك من الظواهر التي لايستقيم تفسيرها بسبب من الأسباب المادية».

- ١١ -

الخواطر والالهام

إن خَلْق الانسان من العجب بمكان. كأن فيه جهاز استقبال لما يحدث. فأحياناً وعلى غير ميعاد تحضر في نفس الانسان صورة قريب أو غريب بعيد عنه وإذا به ماثل أمامه. وكثيراً ما كانت تتردد في خاطري صور أشخاص لا أتوقع ان أراهم. وكانت تتردد الصورة أحياناً علي يوماً او اكثر حتى أعجب من نفسي وإذا بي أفجأ برؤيتها وكأن ذلك إعلام بالمجيء.

وقد يحس الانسان أحياناً كأن حادثاً لابد أن يقع وإذا بحدث يجدّ وكأن روحه تنتظره.

وقد يحس المرء أحياناً بانزعاج شديد وكآبة تخيم عليه ويبدو له أنه غير مرتاح وكأن هناك حدثاً مخفياً عنه وإذا بالقدر يفجؤه بما كان يزعجه. وقد حدث مرة مثل هذا الأمر لشخص كان خارج العراق وقد أصبح ذات يوم واجماً كئيباً، صامتاً كأن على رأسه الطير، تكاد تنهد قواه فعجب منه صديقه الذي كان بصحبته. وكلاهما لايعرف سبب ذلك. ولم تخفف الترويحات المصطنعة ومقابلات الأصدقاء شيئاً من هذا الوجوم. وبيناه كذلك إذا ببرقية تحمل له نبأ قتل صديق من اصدقائه.

وكان أحدٌ ذات مرة في بيته وإذا بوالدته تفجؤه بصيحة: غرق اخوك! فضحك لهذا الخبر وقال هو من وساوس النساء خاصة وأن المدينة ليس فيها نهر. وبعدما خرج من الدار أُنبئ بأن أخاه الأصغر قد انقذه احد الجيران من الغرق وهو يشرف عليه في احدى السواقي الكبار.

وذكر عن علي (رض) أنه لما كانت الليلة التي أصيب فيها أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متثاقل فعاد الثانية وهو كذلك ثم عاد الثالثة فقام علي يمشي وهو يقول:

اشدد حيازيمك للموت ... فإن الموت لاقيكا
ولا تجزع من الموت ... إذا حل بواديكا

وقد تحس أحياناً بأنك مدفوع إلى القيام بعمل ما، وكأن هاتفاً من اعماق نفسك يهيب بك أن تعمله، كما قد ترى نفسك مصروفاً عن عمل آخر كنت ترغب فيه، وكأنك تحذّر من مغبة الخوض فيه. فينكشف لك الامر في كليهما على حقيقته.

وقد تقدم أحياناً على عمل ما وأنت شاعر مبدئياً بعدم نجاحه مهما اجتهدت في إنجاحه فاذا بالعراقيل تحيط به من جميع الجوانب حتى يخيب. وبالعكس فقد تقدم على عمل وتحس بأنه كائن لامحالة حتى كأنك تحلف عليه وإذا به كما تتوقع.

وهناك نوع آخر من الخواطر يسمى (الالهام)، وهو أن يلمع في القلب «شيء من غرائب العلم تارة كالبرق الخاطف واخرى على التوالي الى حدٍ ما[1]»، فتحس به ممتلئة نفسك مطمئناً إليه قلبك. ولكنك لاتدري من أين جاء ولا كيف حصل؟

قد يحلو بعد ذلك لقائل ان يقول إنه العقل الباطن يتلقى الاخبار عن بعد فيخبرنا بها. ولكن لانحن ولا هم يعرفون ماهو هذا العقل الباطن؟ أهو عقل آخر من لحم وعصب، أم ماذا؟ وهل أظهره التشريح وأين يكون هذا العقل في الجسد؟

لاجواب على ذلك سوى انه عقل باطن وحسب.

أليس هذا اعترافاً بوجود نشاط آخر في غير نطاق الجسد يجهل الانسان كنهه ويقوم به باطنٌ خفي؟ أليس ذلك اعترافاً حقيقياً بالروح؟ وهل الروح غير ذاك - شيء خفي يقوم بنشاط عجيب خارج نطاق الجسد؟ إنه لعمري الاقرار الصريح بوجود الروح تحت اسم آخر وذلك لايضير.

- ١٢ -
الرؤى الصادقة

ثم هذه الرؤى الصادقة كيف تحدث؟ ان امرها عجيب.

انسان نائم فاقد الشعور يرى حلما تنبؤيا فيتحقق تماما. قد يراه واضحا لا غبار عليه مثل فلق الصبح، وقد يرى بعض جوانبه او دلالاته، وقد يحتاج بعضها الى التأويل. فيتكشف له ويتبدى ما كان قد رآه. كحلم يوسف الشهير وحلم فرعون مصر وحلم صاحبي السجن. والاحلام التنبؤية من الكثرة بحيث لا يماري فيها احد. وليس من الممكن تعليلها

---

(١) احياء علوم الدين

على الصدف مهما تمحل المتمحلون وادعى المدعون. انها لا تدل الا على اتصال الروح الانساني بعالم آخر وتلقيه عنه. فينفتح له من المغيبات ما ينفتح.

فقد ذكر ان عاملا راى نفسه كانه يصعد على السلم الحديدي في مقر عمله فيهوى منه وتقطع رجله. فتشاءم من هذه الرؤيا واخبر زملاءه بانه لا ينوي العمل ذلك اليوم بسبب الرؤيا التي رآها. فسخروا منه واخذوا يشجعونه على العمل حتى بدأ بالعمل وانغمر فيه ونسي نفسه. فصعد على السلم لامرٍ ما وهوى منه واشار الطبيب بقطع رجله فقطعت كما رأى تماما في منامه.

وذكر لي من لا اتهم من زملائي بان احد اصدقائه كان يعمل في منطقة نائية عن اهله. واذا به فيما يرى النائم كان زوجه وضعت له ولدا ووضعته في الارض فتدحرج وسقط في بئر كان في وسط الدار ولم يستطع ان ينقذه. فتشاءم من هذه الرؤيا وكاتب اهله عما اذا حدث عندهم حادث، فاخبروه بانه اتاه ولد في اليوم الذي رأى رؤياه، ومات في نفس اليوم. وذكر لي احد اصدقائي بان والدته استيقظت ذاهلة قبيل الفجر وذكرت انها رات شخصا - يعرفونه - يسكن في قرية بعيدة عنهم اصاب نفسه بثلاث طلقات نارية حين كان يعبث بمسدس في يده في حفلة عرس. وجاء في الصباح الباكر من يحمل هذا النبأ بنفسه الى اهل القرية.

وحدث لي انني واعدت خمسة من الاصدقاء لصلاة الصبح في احد المساجد. واستيقظت بعد الوقت المضروب بيننا بربع ساعة تقريبا. فصليت الصبح في بيتي وعدت الى الفراش. واذا بي ارى احدهم يصلي منفردا في محل غير المسجد. وارى اثنين آخرين يطرقان الباب على صديقهم الآخر وينادونه باسمه، حتى اذا خرج سألهم عني فاجابه احدهم باني نائم او ناس.

وذهبوا جماعة إلى حيث كان الشخص الأول يصلي فاجتمعوا أربعة. أما الخامس فلم اره. حتى إذا استيقظت كنت حريصاً على أن اخبرهم بالرؤيا قبل أن احادثهم فاذا بها تنطبق تماماً صدقاً بنفس الأسلوب وبنفس الوقت والاشخاص وبعين الكلمات التي اخبرتهم بها.أما صديقهم الخامس الذي لم اره فلم يستيقظ ولم يوقظوه.

وكنت أراسل صديقاً مصرياً وكانت تنقطع رسائله عني الأسابيع والأشهر أحياناً. حتى إذا اتت رسالة منه استقبلتها في المنام فأذهب إلى موزع الرسائل اتسلم منع الرسالة. وبقيت هذه الحالة اكثر من سنة ونصف. ما أتت رسالة إلا واستقبلتها في المنام. ورأيت مرة رسالتى في الرقابة وبعد أربعة ايام تسلمتها بعد ان رأيتها مرة اخرى مع ساعي البريد في المنام. وكنت رأيت مرة رسالة آتية منه نفسه وشاهدت الموزع فلم يخبرني عن الرسالة. فقلت في نفسي خابت الرؤيا اليوم. حتى اذا نمت الظهر رأيت الرسالة مرة ثانية تدفع لي. وبعد العصر أعطاني الموزع الرسالة نفسها.

وكم سمعت وقرأت أن عدداً من الطلاب يرون بعض اسئلة الامتحان في النوم ومنهم من يرى حلها أيضاً.

هذا شيء مدهش ومحير للعقول أيضاً. ويدل دلالة قاطعة على وجود الروح. وإن هناك من الأحلام التنبؤية ماتحتاج إلى تعبير فهي ليست واضحة كالتي سبقت، ومن ذلك انه قال حابس بن سعد الطائي لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين اني رأيت الشمس والقمر يقتتلان والنجوم بينهما نصفين. فقال عمر مع أيهما كنت؟ قال مع القمر على الشمس.

قال كنت مع الآية الممحوة اذهب فلست تعمل لي عملاً ولا تقتل إلا في لبس من الأمر، فقتل يوم صفين.

وقال رجل لابن سيرين رأيت معي أربعة أرغفة حين طلعت الشمس فقال تموت إلى أربعة ايام.

وقال آخر رأيت الشمس والقمر اجتمعا ودخلا في جوفي فقال له تموت واحتج بقوله تعالى «فاذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول

الانسان يومئذ اين المفر».

وحديثاً ليس بالبعيد قال رجل لعابر من اهل العلم: كأن الشمس تطلع حتى إذا كادت ترتفع غربت من مشرقها ثلاث مرات. وفي المرة الثالثة غربت ولم تعد. فقال العابر إن رؤياك تدل على أنني سأموت بعد ثلاثة ايام. وقد وقع. وكثير غير هذا.

ولرب سائل يسأل: كيف تلتقي الأرواح بأهلها وأحبائها وقد يكون الشخص بعيداً عنهم آلاف الأميال حتى إذا أتى من يوقظه استيقظ فجأة؟ وتظهر لنا بساطة الجواب إذا عرفنا أن سرعة الضوء تبلغ... ر١٨٦ ألف ميل في الثانية. فلا يبعد على الروح أن تكون كالضوء على اقل تقدير.

وان هذا التعليل للرؤى الصالحة يوافق الشرع كل الموافقة فقد جاء في الأثر أنه لقي عمر بن الخطاب علي بن أبي طالب فقال له: يا أبا الحسن ربما شهدت وغبنا وشهدنا وغبت. ثلاث اسألك عنهن عندك منهن علم؟ فقال علي ابن ابي طالب وماهن؟ فسأله عمر عن الحب والبغض وعن النسيان وكان سؤاله الثالث «... والرجل يرى الرؤيا فمنها ما يصدق ومنها مايكذب؟ فقال نعم. سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من عبد ينام يتملى نوماً إلا عرج بروحه الى العرش. فالذي لايستيقظ دون العرش فتلك الرؤيا التي تصدق والذي يستيقظ دون العرش فهي التي تكذب».

وذكر أيضاً أن عبد الله بن عباس قال لعمر بن الخطاب يا أمير المؤمنين اشياء أسألك عنها. قال سل عما شئت. وكان مما سأله: مم تصدق الرؤيا ومم تكذب؟ فأجابه، إن الله عز وجل يقول (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها) فمن دخل في ملكوت السماء فهي التي تصدق وما كان منها دون ملكوت السماء فهي التي تكذب.

وقال عبدالله بن عمرو ان ارواح المؤمنين تتلاقى على مسيرة يوم وما رأى احدهما صاحبه قط. ورفعه بعضهم الى النبي (ص).

وقال عكرمة ومجاهد إذا نام الانسان فان له سبباً يجري فيه الروح وأصله في الجسد فتبلغ حيث شاء الله. مادام ذاهبا فالانسان نائم، فاذا رجع الى

البدن إنتبه الانسان وكان بمنزله شعاع الشمس الذي هو ساقط با لأرض فأصله متصل بالشمس.

وقد ذكر ابو عبدالله بن منده عن بعض أهل العلم أنه قال: إن الروح يمتد من منخر الانسان، ومركبه وأصله في بدنه. فلو خرج الروح بالكلية لمات، كما أن السراج لو فرق بينه وبين الفتيلة. الا ترى ان مركب النار في الفتيلة وضوؤ ها وشعاعها يملأ البيت، فكذلك الروح تمتد من منخر الانسان في منامه حتى تأتي السماء وتجول في البلدان، وتلتقي مع أرواح الموتى فاذا أراه الموكل بأرواح العباد ما أحب أن يريه وكان المرئى في اليقظة عاقلاً ذكياً صدوقاً لايلتفت في يقظته الى شيء من الباطل رجع اليه روحه فأدى الى قلبه الصدق مما أراه الله عز وجل حسب خُلقه [1].

وجاء في كتاب السيكولوجيا والروح للاستاذ أحمد فهمي أبو الخير ص ١٩ مانصه: إن الروح تغادر الجسد خلال النوم، وتمضي في سياحتها فتجوب في عالم المادة وعالم الروح، وينعدم لديها الزمان والمكان بالمعنى المفهوم لدينا، فترى من الأحداث الشيء الكثير، وتكون طيلة ذلك متصلة بالجسد المادي بحبل أثيري يستطيل وينكمش وينثنى وينفذ من الجدران وتلك الظاهرة هي التي يسميها العلم الروحي الحديث «طرح الجسم الروحي». فاذا أفلت هذا الحبل من الجسد حدث طرح دائمي للروح أي موت. وهذا الطرح يحدث خلال الغيبوبة الوساطية أو السبات العميق الذي ينتج من مخدر كالكلوروفوم أو خلال مايسمونه «تعليق الحيوية» عندما يدفن فقراء الهنود مثلاً أنفسهم أياماً وأسابيع في الثرى».

وقد أفصح كارنجتون وملدون في كتابهما «طرح الجسم الروحي» في ذلك اي افصاح عند كلامهما عن النوم قالا «... ومما لاشك فيه اننا لن نصل البتة الى نظرية صحيحة ملائمة تفسر النوم مالم نسلم بوجود قوة حيوية، ووجود روح آدمية قائمة بذاتها، تنسحب كثيراً او قليلاً من الجسم خلال

---

(١) راجع كتاب الروح لابن القيم.

ساعات النوم وترى مصداق ذلك في قوله تعالى «الله يتوفى الانفس حين موتها، والتي لم تمت في منامها، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى اجل مسمى».

- ١٣ -
التنويم المغناطيسي

والتنويم المغناطيسي لايقل عجباً عما سبق.. وسيط ينوّم تنويماً صناعياً وترسل روحه الى حيث يشاء المنوّم بعد المحل ام قرب. فيرى ويسمع ويخبر بما رأى وسمع. فاذا استُطلع الخبر وجد كما قال. وكم عملت تجارب بخصوص هذا الشأن فكانت كما اخبر الوسيط.

ولقد حدثّ من لاأتهم انه اتى منوماً في غير بلدته لامرٍ ما، يقول فدخلت عليه ونوم وسيطه بحضوري وسأله عن أسمي وأسم والدي وعملي وعن بلدتي وعما جئت من اجله، وتعمق في ذلك فسأله عن أهلي وافراد عائلتي ومقدار الدراهم التي في جيبي، ونوع وعدد السكائر التي أحملها وهو يجيب عن كل ذلك اجابة صادقة لايتطرق اليها شك او شبهة.

كما حدثني رجل آخر مثل هذا الخبر.

وقد ذكر «السر الكسندر كانن العلامة الانكليزي الشهير صاحب المقام الخامس في النزل الابيض الاعلى في هملايا» في رسالته (في عالم الطيف) اشياء عجيبة عن التنويم، وقال انه يمكن الاستفادة منه في التداوي على نطاق واسع. وان التحليل النفسي لايأتي بفائدة ماتذكر اذا ماقيس بعلاج التنويم. وذكر تحت عنوان(تشخيص الامراض بالطريقة المغناطيسية) ص ٢٧ «ان المبادي التي سأدرجها سيكون لها دوي عظيم وستؤثر على تطور علم الطب.

يجلب شخصاً ثالثاً وينوم تنويماً عميقاً ويدرس علوم التشريح والفيزياء تعليماً وافياً وهو متروبص اي يمشي اثناء نومه فبعد ان يتم دراسته على هذه الصورة تلقى اليه اسئلة فيجيب عنها بدقة مدهشة ويصبح قديراً في تشخيص

الامراض ويصح في مروياته . ولا تعرف طريقة علمية اكثر دقة من هذه. وليس من الضروري للمريض ان يذكر شيئاً عن دائه لأن النائم الخبير يعرف كل شيء وهو نائم فهو يشخص الداء ويصف الدواءويعطي دلائل على تطور المرض. ولقد جاءت تجارب تبرهن على ان بعض النتائج التي يصعب استحصالها بواسطة اشعة اكس تحل بكل سهولة بالتنويم المغناطيسي.

ان كل عضو من اعضاء البدن يبدو كأنه يشاهد عياناً . والاعضاء اللمفاوية اذا شوهدت رمادية اللون فهذا دليل على ان المريض ضعيف البنية . حتى انه يعرف كل ما يراد عن الدم مثل النسبة المئوية للحجيرات الحمر والبيض واذا كان ثمة زيادة أو نقصان في مقدار الكلس او اذاكانت جراثيم الملاريا والامراض العفنة موجودة فيه . ان الانسجة جميعها بما فيها من الغدد الصماء يمكن رؤيتها وعرفان كل ما يراد عنها . . .

والتنويم ايضاً يدلنا فيما اذا يوجد خراج في النخاع واين هو موقع هذا الخراج وكذلك يساعدنا في تشخيص مرض التصلب المنتشر في النخاع وغيرها من الامراض في تجاويف النخاع ولايقتصر التنويم على معرفة الاوضاع المرضية في النخاع فقط بل يشخص الكسور في العظام والضغط على الاعصاب وموقع فقرات العمود الفقري. زد على ذلك ان امراض القلب تشخص بدقة كما تشخص باقي الامراض بأجمعها. . .»

وقد ذكر المؤلف امثلة عمن عالجهم وشفوا من مرضهم. . قال في ص ٥١ :

«ان العالم النمسوي الشهير «مسمر» قال بوجود سوائل مغناطيسية تتدفق من البدن. فضحك علماء جيله ولكنني على استعداد لأن ابرهن لاي عالم او طبيب بوجود هذه المادة السائلة بحالة تدفقها من البدن واصورها بواسطة آلة فوتوغرافية وكذلك بأستطاعتي ان اثبت تأثيرها. وقد اثبتّ ذلك الى كثير من الذين انتقدوني ولم يؤمنوا بصحة نظريتي وبحقيقةهذه الظاهرة ولكنهم سرعان ماastسلموا للحقيقة بعد ان اثبت لهم الطريقة عملياً.»

- ١٤ -
التلبيثي

لقد اعترف العلم الحديث ب «التلبياثي» على انه حقيقة مسلم بها. والتلبياثي هو التخاطر عن بعد بين شخصين ليس بينهما وساطة فيفهم كلاهما صاحبه وما يريد منه، كما حدث فعلاً لعمر بن الخطاب (رض) وهو يخطب الجمعة في مسجد الرسول (ص) حين قال الكلمة المشهورة: ياسارية! الجبل الجبل. و «سارية» يبعد عنه الاف الاميال فاستفاد سارية من نصيحته وانتصر الجيش. وحين قدم سارية سئل عن ذلك فأجاب بأنه سمع امير المؤمنين يناديه ويأمره أن يلتزم الجبل. ولولا هذه النصيحة لهلك خلق من الجيش، اذ كان جيش المسلمين يريد الوادي والروم تريد السفح من خلفهم وهم لايدرون شيئاً عن ذلك. ففتح الله لأمير المؤمنين أن يبصر بنفسه ولم يتمالك نفسه ان ينادي قائده من منبر الرسول لئلا يهلك جيش المسلمين. فسمع سارية من وراء الفيافي صوت امير المؤمنين والتزم بأمره(١)!

ان حقيقة التلبياثي المسلم بها علمياً لتدل دلالة قاطعة على وجود الروح مهما تمحل الماديون لتعليلها. وان هذه الحقيقة التي لايستطيع الماديون انكارها لتهدم كل مايثار حول الروح.

- ١٥ -
الكلام على مافي الخاطر والفراسة

ومن الكلام على مافي الخاطر «قراءة الافكار». وهو علم من العجب بمكان وحقيقته ان يتكلم شخص عما يجول بخاطر شخص آخر لم يُظهر احداً

(١) ان قصة سيدنا عمر هي من باب الكرامات وخوارق العادات وان كانت وسيلتها الروح لا البدن - ع. ز

من البشر عليه. وذكر عن علماء التيبت وغيرهم في خصوص هذا الامر مايكاد السامع يقضي منه عجباً.

ولقد قرأنا انه كان شاب يصحب الجنيد يتكلم عن الخواطر فذُكر للجنيد. فقال إيش هذا الذي ذكر لي عنك؟ فقال له الشاب: اعتقد شيئاً. فقال له الجنيد: اعتقدت. فقال الشاب اعتقدت كذا وكذا. فقال الجنيد: لا. فقال الشاب فأعتقد ثانياً. فقال اعتقدت. فقال الشاب اعتقدت كذا وكذا. فقال الجنيد لا. قال الشاب فأعتقد ثالثاً. قال اعتقدت. قال الشاب هو كذا وكذا. قال لا.

فقال الشاب هذا عجب وانت صدوق وأنا اعرف قلبي. فقال الجنيد: صدقت في الاولى والثانية والثالثة لكن اردت ان امتحنك هل يتغير قلبك؟

وقال ابو سعيد الخراز دخلت المسجد الحرام فدخل فقير عليه خرقتان يسأل شيئاً، فقلت في نفسي، مثل هذا كَلٌّ على الناس. فنظر الي وقال (اعلموا ان الله يعلم مافي نفوسكم فاحذروه) قال الخراز فاستغفرت في سري. فناداني وقال (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده).

وكان بين ابي زكريا النخشبي وبين أمرأة سبب قبل توبته. فكان يوماً واقفاً على رأس ابي عثمان الحيري فتفكر في شأنها. فرفع أبو عثمان اليه رأسه وقال الاتستحي؟!

وأما الفراسة فهي أن يخطر في القلب شيء فيكون كما خطر له، وينفذ الى العين فيرى مالايراه غيره. وليست هي من الظن في شيء فالظن مايخطيء ويصيب. وأما هي فصادقة صدق العبد المؤمن. وقد اثر عن الرسول (ص) انه قال (اتقوا فراسة المؤمن فأنه ينظر بنور الله). فهي على الصحيح التماعات يقذفها الحق سبحانه في القلب الصادق، الصافي صفاء المرآة تبدو فيه صورة الحقائق على ماهي عليه.

وليس هذا من علم الغيب، بل مايقذفه علام الغيوب من الحق في قلب مستبشر بنوره. وقد رأى رسول الله (ص) بيت المقدس عياناً وهو في مكة وذلك حين طلب منه ابو جهل ان يصفه له بعدما أخبر أنه اسري به اليه في ليلة واحدة. فصمت هنيهة

فكشف الله عن عينيه الحجاب فرأى صورته امامه ووصفه كما هو. ورأى قصور الشام وابواب صنعاء ومدائن كسرى وهو بالمدينة يحفر الخندق، ورأى أمراءه بمؤتة (زيد بن حارثة وجعفر بن ابي طالب وعبد الله بن رواحة) وقد اصيبوا وهو في المدينة واخبر اصحابه بذلك.

ودخل على عثمان بن عفان (رض) رجل من الصحابة وقد رأى امرأة في الطريق فتأمل محاسنها، فقال له عثمان: يدخل علي احدكم وآثار الزنا بين عينيه. فقلت أوحي بعد رسول الله ﷺ؟ فقال لا ولكنها فراسة المؤمن. ولاشك أن هذه الامور لايمكن ان تأتي عن طريق الحواس المعروفة اذ ليس بأستطاعتها النفوذ الى الخواطر والافكار وانما هي من شأن الروح التي لايحول دون وصولها الى الأفكار حائل او حجاب.

- ١٦ -
تصوير الروح الانساني

ولئن جاز في عقل امريء ان يشك فيما مضى لا يصح منه بحال ان يشك فيما سنذكره وبعدما اثبت العلم التجريبي والتحقيق العملي وجود الروح:

(١) تجربة مدام كوري: اثبتت مدام كوري بالتجربة الحاسمة ان الانسان جسد وروح.

وكانت أولى تجاربها في هذا الصدد ان انتهزت فرصة اختبار أعمال الوسيطة الروحية «أسابيا بلادينو» في المعهد السيكولوجي بباريس، وكانت «اسابيا» اذ ذاك في عنفوان قوتها الوساطية، فجاءت بثلاث كشافات كهربية وشحنتها، ثم طلبت الى الوسيطة إن كان لها روح تنساب من جسدها أن تفرغ بهذه الروح المنسابة الكشافات دون ان تلمسها بجسدها المادي. وفعلاً بأشارة من يدها تارة، وبايمائها من رأسها تارة اخرى، استطاعت ان تفرغ الكشافات الثلاثة حيث انطبقت اوراقها الذهبية. فاستنتجت مدام كوري ومن معها ان ثمة شيئاً خرج من جسد الوسيطة البعيدة عن الكشاف ثم لمسه ففرغت شحنته خلاله الى جسم الوسيطة ثم الى الارض.

(٢) استخـدام جهـاز «مخدع ولسن Wilson chamben» : قال الدكتور واترز انه إذا كان هنـاك عنصـر يستخلص عنـد المـوت فلابـد أن تدركه عدسة التصوير في هذا الـجـهـاز، ويـتـكـاثـف البخـار فـوقـه كمـا يتكـاثـف فـوق الالكتـرونـات . مثلاً. وفعلاً التقطت العدسة الصور التي تكهن بوجودها . ونراه يقول عـــن ذلك إنـه «بينـة جـديـدة تعين نوعـاً من طاقـة يفقـدهـا الجسم عند لحظة حدوث الموت الحقيقي . ولم تدل البينـات الفيـزيقيـة المستخلصـة على ان ذلـك الـذي يفقـده الجسم نوع من أنـواع الطـاقـة فقـط ، بل دلت على انـه جسم غير مادي إنسل من الجسم المادي في لحظة حدوث الموت ، وقد أمكن أن يرى بأستخدام بخار الماء» .

ويستمـر في تدليله قائـلا : «هب انـا وضعنـا حشـرة كبيـرة أو حيـواناً صغيراً في مخدع ولسن ثم شرعنا في قتل ذلك الحيوان ، وهب أنه في اللحظة التي نفق فيها كان مكبس الجهاز قد اسقط واستحدثت سحابة . ويلاحظ أن هذه السحابة تتكون في هواء معـد من قبـل وقـد اخلي من كل مايمكن وجـوده من الايـونـات ، وذلـك باستخدام كهربي استاتيكي كبير. ولنفرض بعد هذا إن الصورة الفوتغرافية الناتجة قد أظهرت لنا أننا في اللحظة التي مات فيها الحيوان قد نجحنا في امساك كتلة أو جسم أو مقدار ما في بخار الماء . فهذا المقدار الذي نجحنا في تصويره - كالايونات - لاتـدركـه العين ، غيـر انه لسبب ماقد جذب الضباب فاستقر عليه بنفس الطريقة التي يستقـر بهـا على الايـونات في مسار أشعة الفا . . . وإذا وجدنا إن هذا المقدار الذي نحن بصدده يطابق المقابل الفيزيقي للجسم الذي منه انسلخ منه - إذا وجدنا هذا فانـه لايسعنـا إلا الحكم بان هذا المقـدار الذي ظهر إنما هو ذلك الجزء الذي انطلق من الحيوان الذي اجريت عليه التجربة» .

وفي سلسلة من خمسين صورة حصل الدكتور واترز Dr. R. A. Watters,F. R. S. A. (London) على نتـائـج ايجـابيـة في أربـع عشـرة صورة . وكان الاسلوب المتبع في التجـريب يقضي بأن يحقن الحيـوان بعـد التصـوير بالحقن المنبهـة لكي ترد اليـه الحيـاة . وقـد لوحـظ أن الـحـيـاة كانت ترد للحيوان في بعض الحالات التي

كانت النتائج الفوتغرافية سلبية، ولم يحدث قط في أي حالة ظهرت فيها صورة لذلك المقدار أن أمكن رد الحياة الى الحيوان.

وبعبارة اخرى لم يحصل قط على صورة فوتغرافية لهذا المقدار الا وكان الحيوان مات حقيقة.

والنتيجة التي انتهى اليها الدكتور واترز هي ان ذلك المقدار بين الذري جسم غير مادي يطابق بالضبط الجسم المادي الذي انطلق منه، وانه متى انقطعت الصلة بين الجسمين حدثت الوفاة الحقيقية.

الأصل الثاني
الحياة بعد الموت

من اليسير علينا الآن، وقد اثبتنا وجود الروح، ان نؤمن بالحياة الاخرى ولكننا مع ذلك سنسير في تقرير الادلة بما يسعفنا الله به(١).

-١-

البعث ضرورة

هذه الدنيا ميدان معركة بين الخير والشر، وصراع بين الحق والباطل. وقد ينال الشر من الخير والباطل من الحق، وتمر الاعوام وتتعاقب الازمان وليس للحق صولة ينال بها من اعدئه.

لقد قضى على مسرح الدنيا اشخاص كثيرون وجماعات عدة، سلب الطغيان اموالهم، وداس البغي كرامتهم، وازهق الظلم ارواحهم، وليس لهم ذنب فعلوه او جرم ارتكبوه الا انهم نطقوا بكلمة الحق وصدعوا بها بين الناس.

فهل ياترى ستذهب ارواح هؤلاء البرؤاء عبثاً، ودماء الشهداء هدراً؟ وهل ينحو الظالم مما اقترفت يداه، وقد امعن في البغي والعدوان، وسلب الاموال بغير حق، وأباد الارواح الكريمة، وازهق النفوس البريئة؟

---

(١) ان من عرف ربه آمن باليوم الآخر لامحالة، ذلك ان من العدل والحكمة ان يجازى الانسان عن عمله ولما كانت الدنيا ليست بدار جزاء فلابد من يوم يجتمع فيه الخلق لينالوا جزاء اعمالهم. كما اننا نرى خلقاً كثيراً لاينالهم كل الجزاء الذي يستحقون في الدنيا. فافلاتهم من الجزاء قدح في عدل الرب اذا لم نؤمن بيوم آخر يجازى فيه المسيء والمحسن. كما انه من العبث ان يخلق هذا الكون العجيب لغير غاية او حكمة ولما كنا نرى الناس يموتون فلابد من دار اخرى تظهر فيها حكمة خلقهم واضحة جلية. ومن اجل هذا كله وكون ان الايمان باليوم الآخر امر بدهي ومن لوازم الايمان بالرب جل جلاله ولوازم حكمته وعدله رد على الكافرين انكارهم لليوم الآخر فقال تعالى «افحسبتم انما خلقناكم عبثاً وانكم الينا لا ترجعون؟ فتعالى الله الملك الحق ع.ز...»

هل من المعقـول، ان تهلك اقـوام، وتبـاد جماعات بلا اثم ارتكبوه، ولا ذنب فعلوه، ثم لايرد اليهم حقهم المغصوب وكرامتهم المسلوبة؟

هل من الـمعقـول، ان يذهب هؤلاء واولئـك وليس لهؤلاء من ارجـع اليهم حقهم، وأدان اولئك على فعلهم؟

أي منطق في الحياة يقتضي ذاك؟!

أي منطق في الحيـاة يقتضي ان تمتهن الكـرامـات، وتـزهق الارواح، وتباد الجماعات بسبب ظالم باغ وسفاك اثيم؟

ثم اي منطق في الحيـاة يقتضي ان يذهب المجـرمـون الظـالمـون والغـادرون الآثمون مدلين بسلطانهم، متبجحين بكبريائهم، ومن سيوفهم تتقطر الدماء، ومن ايـديهم تنبـع الجـريمـة ثم لايكـون هنـاك يوم آخـر يحـاسبـون فيه على مااقترفت ايـديهم، اي منطق في الحيـاة يقتضي ان يذهب شهـداء الحق وحـاملو ألويته كما يذهب عُبّـاد الجـريمـة سواء بسـواء وليس هناك من ادان اولئك وكافأ هؤلاء وأرجع اليهم حقهم؟

ماأيسر الظلم والطغيان إذن! وماأيسر الفجور والجريمة! وما اهزل منطقاً يقتضيه!

انه من غير المعقول، ومن غير المنطقي ان يعاقب اناس ويفلت آخرون اعظم جرماً، واكبر خطراً وظلماً.

هنـاك أشخـاص آذاهم الباطل بالباطل، وصرعهم البغي بالاثم والعدوان، فهل تذهب دماؤهم هدراً، ويفلت القاتلون من العقاب؟

ان منطـق الحيـاة يقتضي ان يحـاسب الانسـان على عمله، ويؤخـذ الظـالم بجـريـرتـه، ويكـافأ الجنـود المجهـولـون، والـرجـال المخلصون بعد ان ازهقت ارواحهم، وذهبوا في غيبة الحق في ظلمات السنين.

أنــه تمشيـاً مع منطق الحيـاة بل تمشيـاً مع منطق هؤلاء وحججهم في الاثبات يقتضي ان يكون ذاك. ان منطقهم يقتضي هذا الامر.

يقـولـون ان الحاجة تقتضي ان يزود النبات الصحراوي بمادة كيوتينية تمنعه من التبخـر، والحـاجـة تقتضي ان يكون للدب القطبي وغزاله فرو ثخين وجلد سميك

يمنعه عادية البرد والقر، والحاجة تقتضي ايضاً ان يكون للجمل معدة ذات مخادع يخزن فيها الماء اياماً.

ألا تقتضي الحاجة كذلك، أن يكون هناك يوم آخر ينتصف فيه المظلومون من الظالمين، ويحاسب المجرمون على اجرامهم، ويكافأ العاملون على اخلاصهم؟

ألا تقتضي الحاجة ان يعاقب الباغون الغادرون الذين انتهكوا الاعراض، وأراقوا الدماء، وأن لا يسووا بشهداء الحق وصرعى الاخلاص؟

ألا تقتضي الحاجة ان تعاد الحقوق لاصحابها وترجع الامور في نصابها؟

ان الحاجة تقتضي ان يكون هناك يوم آخر ينصب فيه الحق ميزانه، ويعلن احكامه، ويمتد الى الباغين بالعقاب والى المحسنين بالاحسان.

انها تقتضي ذلك اقتضاء تمشياً مع منطق الحياة الذي لم يعهد عنه إلا الحصافة في كل شيء.

- ٢ -

البعث بعد الموت

اذا عرفنا ذاك وادركناه، وعسر علينا ان نفهم كيف يقوم الناس من مخادعهم، وينهضون من مضاجعهم فلنقل إذن:

ان الاعادة اسهل من الابداء، وان الفنان الذي يصنع التماثيل ويعملها أيعجزه حينما تكسر يد تمثال اورجله او اي عضو من اعضائه ان يعيده مرة اخرى؟ ان الذي صنع تصميم التمثال في فكره، وأخرجه ماثلاً امامه، وعمل آلافاً على منواله لا يعجزه ذاك. لا يعجزه وقد صنعه حينما لم يكن الا تصميماً في فكره ابتدعه هو.

أيعجز القدرة التي صممت خلق الانسان وهيأته واخرجته الى حيز الوجود أن تعيده؟ أيعجزها ان تعيده مرة اخرى وقد انهت تصميمه وجربت خلقه ملايين المرات؟

«اذا قيل ان كاتباً حاذقاً في الكتابة كتب الف كتاب وأدرجها على احسن وجه من غير غلط او سهو او نقصان، ثم محا بعض حروفها فهل يمكن ان نقول انه لا يقدر على كتابة ما محا؟»

ان القدرة التي سطرت هذا الوجود بكلماتها وسطورها المتعددة هل يعجزها ان تكتب ما تمحوه بنفسها؟ انها هي التي وضعت سنن الحياة والموت بنفسها فهل يعجزها ان تعيد ما سطرته بعد عدم؟

- ٣ -

هذه الحياة والحياة الآخرة

يقول بديع الزمان النورسي « . . . ان هذه الدنيا ليست لذاتها وبذاتها بل انما هي منزل تملأ وتفرغ بحلول وارتحال وان ساكنيها مسافرون يدعوهم رب كريم الى دار السلام.

وان هذه التزيينات ليست للتلذذ بل للتنزه فقط بدليل انها تلذك آناً ثم تؤلمك بفراقها ازماناً. وتذيقك وتفتح اشتهاءك ثم لاتشبعك لقصر عمرها او قصر عمرك بل انما هي للعبرة وللشكر وللشوق الى اصولها الدائمة ولغايات علوية. »

- ٤ -

الانسان والحياة الاخرى

يقول الاستاذ محمد عبد المنعم في كتابه (العقل المؤمن):

«ان كل ما في الأرض من قرائن يدل على ان الانسان هو المقصود بالخلقة فيها، وما عداه فمخلوق له لينتفع به. وله من حياته الفكرية والنفسية ما يشعره بهذا القصد. . .

ونظرة واحدة الى اخراج الافراد من الارحام بصور متعددة الوجوه، وشكول مختلفة في العقول والنفوس - وهذا في الانسان فقط -، تحملك على الجزم والاعتقاد بأن القصد في الطبيعة متجه الى خلق الفرد بالذات، وانه مخاطب وحده.

الحق ان الفرد مقصود بالخلق، مخاطب من واهب الحياة مباشرة بما فيه من الادراك، مراعى فيه تمييزه بصورته ونفسيته ليشعر بفرديته وغايته الخاصة فلا هو

يشبه اخاه كما يشبه الغُراب الغرابَ والنملةُ النملةَ. . . فالفروق بين افراد الانواع الاخرى فروق ضئيلة لاتكاد تميز في الصورة، ولا في الادراك بخلاف الانسان فان تنوع صوره الظاهرة والباطنة لأمر محير. . .

واني لأتساءل دائماً:

ما الذي اوجد في نفوس الانسانية ذلك الشعور الثابت بأنها لاتفنى ولاتنتهي حياتها بدخول المقبرة؟ ولماذالم تحملها موحيات الحياة على غير هذا الشعور لو ان الامر غير ذلك؟

ثم لماذا نجد في خيالنا صورة لحياة كاملة لاقيود فيها للجسم ولا للروح؟ فمن اين لنا هذه الصورة؟ . . .

ان اقرب الفروض الى الحق في دنيا العقل، هوما يدعوالى صلاحية النفس للحياة، واصلاحها لها، وما يُحل به اكبر مقدار ممكن من المشكلات، وما صح تطبيقه على وجه الشمول بين الناس في كل مكان وزمان.

هذا ما يسلم به العلم والفلسفة ومذاهب الاخلاق والعمل. ومصير الانسانية إلى حياة اخرى اسمى من هذه الحياة، هوذلك الغرض الذي ينطبق عليه ذلك التعريف السابق، هو لا غيره.»

- ٥ -

نزعة البقاء

نظرة الى الانسان وباقي الاحياء:

ان في قلب الانسان همة لاتني، وفي رأسه طموحاً لايحد. ان آماله اوسع من ان تحققها هذه الحياة. .

انه يحب الخلود ويرغب في البقاء، ويهرب من الموت ويفر من الفناء.

«ان كل شيء قد حظى بكماله في دنياه بغير نزوع منه الى حياة اكمل مما يدل على انه قد خلق للحياة هنا فقط، بخلاف الانسان، فانه يشعر كأنه طير مقصوص الجناحين لايزال يحلم بالجو الذي خلق ليعيش فيه. ان الانسان العادي لايحتمل ان يتلقى القول بانه مخلوق للحياة هنا فقط دون ان يثور على الحياة او يقنط قنوطاً

قاتلاً لحيويته [1]».

هذا الانسـان الـذي تهتف في اعمـاق نفسـه غريزة حب الخلود، وتتصايح في جوانبـه نزعـات البقـاء الـدائم، وهذا في الانسان فقط «اما الحيوان فانه ابن ساعته ليس له ماض يتأسف عليـه» ولا مستقبـل يرنـو اليـه ولا أمـل واسع يتمنى تحقيقه، «فالديك لو امررت عليه سكينة الذبح لايشعر الا بألم الساعة عكس الانسان الذي يحن الى ماضيه ويرنو الى مستقبل بعيد». . ان هذا الأمر له دلالته ومعناه. .

«انـه كمـا يدل جوع المعـدة على وجود الطعام في الخارج يدل هذا الأمر دلالة قاطعة على وجود حياة اخرى».

- ٦ -
خلود الروح

كثيـر من النـاس يشـاهـدون موتاهم في المنام، آباءهم او اخوانهم اوأقرباءهم ويخبـرونهم عن اشيـاء لايعـرفونها فاذا بها كما اخبروا. وهذا من الكثرة بمكان في السابق واللاحق في كل عصر ومصر. والامثلة على ذلك كثيرة. منها انه لما كان يوم اليمامة خرج ثابت بن قيس بن شماس مع خالد بن الوليد الى مسيلمة الكذاب، فلمـا التقـوا وانكشفـوا قال ثابت وسـالم مولى ابي حذيفـة، ما هكـذا كنا نقاتل مع رسـول الله ﷺ. ثم حفـر كل واحـد له حفرة فثبتا وقاتلا حتى قتلا وعلى ثابت يومئذ درع له نفيسـة، فمـر به رجـل من المسلمين فأخذها. . فبينما رجل من المسلمين نائم إذ أتاه ثابت في منامه فقال له اوصيك بوصية فاياك ان تقول هذا حلم فتضيعه اني لما قتلت امس مربي رجل من المسلمين فأخذ درعي ومنزله في اقصى الناس، وعنـد خبـائه فرس يستن في طوله، وقد كفأ على الدرع برمة وفوق البرمة رحل فأت خالـداً فمـره أن يبعث الى درعي فيأخـذهـا. واذا قدمت المدينة على خليفة رسول ﷺ يعني ابا بكر الصديق فقل له، ان عليّ من الدين كذا وكذا، وفلان من رقيقي

(١) العقل المؤمن - عبد المنعم خلاف

عتيق وفلان، فأتي الرجل خالداً فأخبره فبعث الى الدرع فأتي بها. وحدث ابا بكر فأجاز وصيته.

وقال عبد الله بن سلام اتيت اخي عثمان لاسلم عليه وهو محصور، فدخلت عليه فقال مرحباً يا أخي رأيت رسول الله ﷺ الليلة في هذه الخوخة [1] - وهي خوخة في البيت - فقال ياعثمان حصروك؟ قلت: نعم! قال عطشوك؟ قلت: نعم، فأدلى إلى دلوا فيه ماء فشربت حتى رويت حتى اني لأجد برده بين ثدبي وبين كتفي. وقال لي: ان شئت نصرت عليهم وان شئت افطرت عندنا، فاخترت ان افطر عنده.

فقتل ذلك اليوم رضي الله عنه.

«وذكر عن ابي محمد عبد الله التعايشي عجباً...

فمن نوادره ان امرأة عجوزاً من الصالحات توفيت ولامرأة عندها سبعة دنانير وديعة. فجاءت اليه صاحبة الوديعة وشكت اليه ما نزل بها واخبرته باسمها واسم الميتة صاحبتها، ثم عادت اليه من الغد فقال لها: تقول لك فلانة: عدّ من سقف بيتي سبع خشبات تجدي الدنانير في السابعة في خرقة صوف ففعلت ذلك فوجدتها كما وصف لها.

قال علي بن ابي طالب القيرواني العابر: اخبرني رجل لا اظن به كذباً، استأجرتني امرأة على هدم دارلها وبنائها بمال معلوم. فقالت والله مالي الى هدم هذه الدار من حاجة، لكن ابي مات وكان ذا يسار كثير فلم نجد له كثير شيء فخلت ان ماله مدفون فعمدت الى هدم الدار لعلي اجد شيئاً. فقال لها بعض من حضرنا: لقد فاتك والله ماهو اهون عليك من هذا. قالت وما هو؟ قال: فلان تمضين اليه وتسألينه ان يبيت قصتك الليلة فلعله يرى اباك فيدلك على مكان ماله بلا تعب ولا كلفة. فذهبت اليه ثم عادت الينا فزعمت انه كتب اسمها واسم ابيها عنده. فلما كان من الغد بكرت الى العمل، وجاءت المرأة من عند الرجل فقالت: ان الرجل قال لي رأيت اباك وهو يقول المال في الحنية. قال فجعلنا نحفر تحت الحنية وفي جوانبها حتى لاح لي شق واذا المال فيه. قال فأخذنا في التعجب

---

(1) الخوخة هي الكوة في البيت او هي الباب الصغير في الباب الكبير

والمرأة تستخف بما وجدت، وتقول مال ابي كان اكثر من هذا ولكن اعود اليه فمضت اليه فأعلمته ثم سألته المعاودة. فلما كان من الغد اتت وقالت انه قال لها ان اباك يقول لك احفري تحت الجابية المربعة التي في مخزن الزيت. قال ففتحت المخزن فاذا بجابية مربعة في الركن فأزلناها وحفرنا تحتها فوجدنا كوزاً كبيراً فأخذته.

وصح عن حماد بن سلمة ان الصعب بن جثامة وعوف بن مالك كانا متآخيين. فمات صعب فرآه عوف فيما يرى النائم كأنه قد اتاه. وكان مما قاله: عشرة دنانير استسلفتها من فلان اليهودي فهن في قرني فأعطوه اياها، واعلم يا اخي انه لم يحدث في اهلي حدث بعد موتي الا قد لحق بي خبره حتى هرة لنا ماتت منذ ايام. فلما اصبحت قلت ان في هذا لمعلماً. فأتيت اهله. فقال مرحباً بعوف أهكذا تصنعون بتركة اخوانكم لم تقربنا منذ مات صعب، قال فاعتللت بما يعتل به الناس. فنظرت الى القرن فأنزلته فانتشلت ما فيه فوجدت الصرة التي فيها الدنانير. فبعثت الى اليهودي فقلت: هل كان لك على صعب شيء؟ قال رحم الله صعباً، كان من خيار اصحاب رسول الله ﷺ هي له. قلت لتخبرني. قال نعم اسلفته عشرة دنانير. فنبذتها اليه. قال: هي والله بأعيانها. قال قلت هذه واحدة.

قال فقلت هل حدث فيكم حدث بعد موت صعب؟ قالوا نعم حدث فينا كذا وكذا، حدث فينا كذا وكذا. قالت قلت اذكروا قالوا نعم هرة ماتت منذ ايام. فقلت هاتان اثنتان..

وكثير أمثال هذه الحوادث..

وأنا اعلم حوادث عدة من هذا القبيل وقعت لجملة من معارفي فلولم تكن ارواح هؤلاء الاموات باقية حية، فمن اخبر هؤلاء إذن بما لم يعرفوه؟

انه لاسبيل الى الانكار ولا مفر من الاعتراف بان الارواح خالدة حية باقية وانها تتصل احياناً بأرواح الاحياء كما قد يحدث في النوم.

انه دليل واضح يقره العقل وتقول به الشريعة، فما أضل المنكرين!!

- ٧ -

تحضير الأرواح [1]

والآن وبعد التحقيقات العملية، فهل من الممكن انكار بقاء الارواح وخلودها؟

لقد اثبت علم تحضير الارواح خلود الروح وبقاءها.

ان طرق التحضير متعددة - كما اسلفنا -، فمنها مايسمعك صوت الروح المتوفى ومنها ما يريك خطه وتوقيعه كما تعهده بل وصورته كذلك. بل هناك ما هو اغرب من ذلك كما سبق بيانه.

فعلام تدل كل هذه الامور؟ ألا تدل دلالة واضحة لاريب فيها على خلود الارواح؟

ان كل شيء قد قضى بذاك، الشريعة والعقل والمنطق وفطرة الانسان والواقع المشهود وحتى العلم التجريبي فمن يجرؤ بعد كل هذا ان ينكره؟!

---

(١) لقد قلنا رأينا في تحضير الارواح قبل هذا الموضع

والآن وبعد الذي عرفناه، ألا ينبغي ان نرجع الى ربنا، ونئيب الى بارئنا، بقلوب يعمرها الايمان؟ ألا ينبغي يا اخي ان نقف على منازل الاحباب، ونطرح على الاعتاب، بقلوب يجللها الخشوع، وعيون تفيض بالدموع، ونهيم كما يهيم العاشقون، ونصيح كما يصيح الوالهون.

فليتك تحلو والحياة مريرة   وليتك ترضى والانام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر   وبيني وبين العالمين خراب

اخي يا أخي: لقد جاءتك موعظة من ربك، فمن ابصر فلنفسه ومن عمي فعليها ولا تزر وازرة وزر اخرى «وان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا».

الى الله يا اخي! الى ربك يا أخي! اقطع التذكرة، واسلك السبيل، وشد الرحال، واعزم المسير، فالطريق موحشة والسفر طويل.. والمنادي يؤذن بالبعاد، ويهيب بالفؤاد، ويهتف بالرحيل، الى الملك الجليل.

فحي على جنات عدن فانها   منازلك الاولى وفيها المخيم

الينا أيها الغرباء[1]! الينا ايها الظاعنون! فقد ازجينا المطايا وامتطينا المتون.

فحي على نور النبوة، وحي على مصابيح الرسالة، فقد جد السالكون، وادلج العارفون وانا على آثارهم مهتدون.

فوالله لن تحط القافلة الرحال، ولن تنتهي الآمال وتسكن النفوس إلا في جوار الله سبحانه. فالرحيل! الرحيل!

«ألا مشمر للجنة فان الجنة لاخطر لها. هي ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز وقصر مشيد ونهر مطرد وثمرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة وحلل كثيرة ومقام في ابد في دار سليمة وفاكهة وخضرة وحبرة ونعمة ومحلة عالية بهية ولو لم يكن من خطر

(١) مبنى للاختصاص أي نحن الغرباء

الجنة وشرفها الا انه لا يسأل بوجه الله غيرها لكفاها شرفاً وفضلا».

لك الاسوة يا أخي في مصابيح الهدى وأئمة التقى، الصحابة الأطهار والمشمرين الابرار، فقد كان كل منهم غزير الدمعة، طويل الفكرة، يقلب كفه، ويخاطب نفسه..

ويشهد بعضهم على احدهم[1] فيقول، رأيته وقد ارخى الليل سدوله وغارت نجومه ماثلاً في محرابه وقابضاً على لحيته، يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين يقول: يا دنيا اليك عني، غري غيري لا تغريني في دهري. أبي تعرضت ام الي تشوقت؟ هيهات هيهات قد باينتك ثلاثاً لا رجعة لي اليك، فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك كبير. آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق».

«يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في اي صورة ماشاء ركبك»

يا ايها الانسان ماغرك بربك؟ تعهدك برعايته وصنعك على عينه.

حتى اذا كنت بكراً فتيا، وجلداً قويا، رأيتك تعلنه المحاربة وتسعى بها بين الناس «أولم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين».

حتى اذا بلغ بك الكبر مبلغا، اغرك طول الأمل وحب البقاء عن العمل، ورضيت ان تكون مع الخوالف، وقد غدت ايامك كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف.

كل امرىء مصبَّح في اهله والموت ادنى من شراك نعله

فاذا وخطك الشيب، ونعب فوقك غراب البين، وقد دنت منك ساعة الموت، وقد أُخذت ولافوت.

لعمرك مايغني الثراء عن الفتى اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

«وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد»

«لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد».

«كلا! اذا بلغت التراقي وقيل من راق وظن انه الفراق والتفت الساق بالساق الى

(١) هو الامام علي كرم الله وجهه

ربك يومئذ المساق».

حتى اذا لوّح اليـك المـوت بيديـه، وتنـاولـك بكفيـه، وغيبّك في اللحـود، وأصبحت طيفـاً تنسيـه الايـام، وذكراً تبليه الاعوام، وصرت في العصور الخوالي، والرسوم البوالي «فلا ينفع أن تقول نفس ياحسرتا على ما فرطت في جنب الله».

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا   انـيس ولـم يسـمـر بمكة سامـر

«اولم يهـد لهم كم اهلكنـا قبلهم من القـرون يمشـون في مساكنهم أنهم اليهم لايرجعون فتعالى الله الملك الحق»

«وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين»

«فكأين من قرية اهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصـر مشيـد. أفلم يسيـروا في الأرض فتكـون لهم قلوب يعقلون بها او آذان يسمعون بها فانها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور»

لقد كان في قصصهم عبرة، واي عبرة تستدر المآقي وتكسر النفوس للوارث الحي الباقي..

ناء الـدهـر عليهم بكلكله، واسبـل عليهم استـاره، وحجبهم في ظلمـات القرون. فليت شعري متى يفهم الناس؟ الا ليت الناس يفهمون!

أيـن الملوك ذوو التيجـان من يمن   وأيـن منـهـم اكـاليـل وتيجـان
وايـن ما شاده شداد في ارم   واين ما ساسه في الفـرس ساسـان
وايـن ما حازه قارون من ذهـب   وايـن عاد وشـداد وقـحطـان
اتـى على الـكـل امـر لا مرد له   حتى قضـوا فكأن الكـل ما كانـوا
وصـار ما كان من مُلك ومـن مَلك   كمـا حكى عن خيال الطيف وسنان
كأنمـا الصعب لم يسهـل له سبب   يومـاً ولا ملك الـدنيـا سليمـان

اي اخي يرحمك الله: ألم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الـحق؟ الم يأن ان تخشـع القلوب؟ ألم يأن ان تنـاجي مولاك، في

روعة السكون، وهدأة الجفون، وقد ارخى الليل الازار وأسبل الستار «فان الله خلق ريحاً تهب بالاسحار تحمل الاذكار والاستغفار الى الملك الجبار».

الهي ! اغلقت الملوك ابوابها وبابك مفتوح للسائلين. الهي نامت العيون، وهدأت الجفون، وانت الحي القيوم.

الهي ! ها أنا اطرق اليك ابواب السماء فلا تردني خائبا، واضرع اليك بالدعاء فلا تردني صفراً يارب العالمين.

اللهم ياخير مأمول ويا اكرم مسؤول انقطع الامل الا منك والرجاء الا فيك.

الهي ! انا العبد الفقير والخادم الاجير وانت اللطيف الخبير. فالطف بي لما تشاء إنك على ماتشاء قدير.

الهي ! انا الذي امرتني فقصرت،ونهيتني فعصيت فلا حول ولا قوة إلا بك والأمر منك واليك.

سبحانك ربي لا اله الا انت وحدك اني كنت من الظالمين.

الهي ! اليك اشكو ضعف القوى، وغلبة الهوى فلا تؤاخذنا بوساوس النفوس يا ارحم الراحمين.

الهي ! ها انا ادعوك والناس نيام واناجيك والخليون هاجعون، وانت أعلم بسري وجهري لايخفي عليك شيء من أمري.

اللهم يا عالم السر والنجوى وفقنا لما فيه خيرنا وطاعتك يارب العالمين.

الهي ! سيدي ! انك قلت وقولك الحق «واذا سألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان» فها أنا ادعوك باسمك العظيم وسلطانك القديم ان تحرك سواكن القلوب وتحيي موات النفوس.

اللهم يا انيس المستوحشين ويا حبيب العارفين ويا رب العالمين آنس وحشتي وارحم غربتي يوم يعز الانيس ويفقد الجليس يا الله !

اللهم انا منك واليك فلا تخزنا يوم العرض عليك. ولا حول ولا قوة الا بك. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

المحتويـــــات

لقد غشيت البشر في عصرنا الحاضر موجة هائلة من المادية القاسية، سدت عليهم منافذ الجانب الروحي من كيانهم، ولفتهم ظلمة صاروا معها لا يستبينون طريق الحق ولا معالم الصواب. ولا يزال ركب الانسانية موغلاً في سيره في هذا الدرب المظلم، مستسلماً لهذه الموجة المادية الطاغية..

★★★★

ان هذا الكتاب يضم ابحاثاً جيدة، ونافعة ان شاء الله تعالى في الايمان بالله تعالى، واليوم الآخر، واثبات وجود عالم روحي غير عالمنا المادي، وان الانسان مادة وروح. كل هذا وغيره كتبه المؤلف باسلوب واضح جذاب مع نقول من كتب مختلفة تؤيد ما ذهب اليه. وحسب المؤلف أن يثيبه الله تعالى أجراً على نيته وجهده في إخراج هذا الكتاب سواء رضي الناس عنه أم سخطوا فما ينبغي للمسلم أن يعمل لمرضاة الناس أم سخطهم.

د. عبد الكريم زيدان

رقم الايداع ١٠٨٥
في المكتبة الوطنية
ببغداد لسنة ١٩٨٥

السعر: دينار ونصف